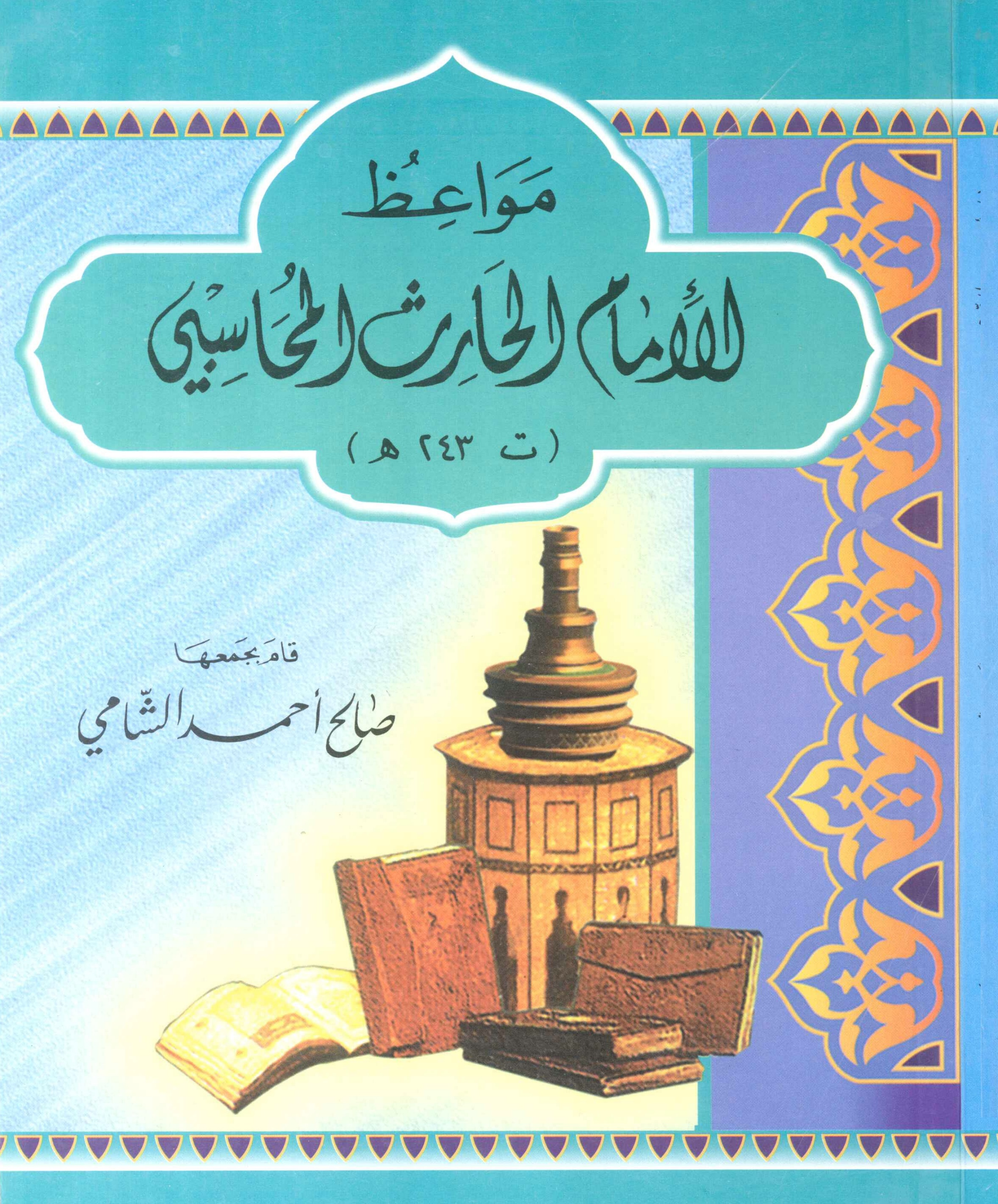


مواعظ الإمام الحارث المحاسبي

(ت ٢٤٣ هـ)

قام بجمعها

صالح أحمد الشّامي

المكتب الإسلامي

مواعظ
الإمام الحارث المحاسبي

(ت ٢٤٣ هـ)


بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في التربية والدعوة

مواعظ

الإمام الحارث المحاسبي

(ت ٢٤٣ هـ)

قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة: شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

والعيش في ظلال هذا الفرع أمر جميل، تسعد فيه النفس، وتسمو فيه الروح، وتطرب له الأذن، ويجد فيه العقل متعته.

وسعياً في تفيؤ هذه الظلال، كانت فكرة جمع هذه المواعظ، التي هي خلاصة تجارب، ونتاج أعمار، قدمها لنا أعلام هذه الأمة على مرور الأيام.

وقد كنا في العقد الأول من هذه السلسلة «معالم

في التربية والدعوة» مع علماء القرن الثاني رحمهم الله.

أما العقد الثاني من هذه المعالم فسيكون مع أعلام هذه الأمة ممن عاش في القرن الثالث وما بعده.

وأول من نبدأ بتقديم مواعظه، الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي، رحمه الله.

هذا، ونرجو الله عز وجل أن ينفعنا بما نسمع، ويوفقنا للعمل الصالح، ويجعلنا في عداد عباده المقبولين، إنّه سميع مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

غرة جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ

١٩٩٩/٨/١٢

كتبه

صالح أحمد الشّامي

الحارث المحاسبي

هو أبو عبد الله، الحارث بن أسد المحاسبي.

ولد في البصرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

ونشأ في بيت علم وثراء، فقد كان أبوه كثير الأموال، كما كان من أهل العلم، إلا أنه كان قدري المذهب، فلم يكن على طريقة أهل السنة.

وانتقل الأب بأسرته إلى بغداد، وفيهم الحارث، وهناك أتيح للابن أن يتنقل بين المدارس وحلقات العلم. . ليختار طريق أهل السنة، معارضاً لوالده.

وهكذا بدأت شخصية الحارث تظهر قوية، متمسكة بالحق، لا تؤثر على الحق أحداً، حتى ولو كان أباه.

وقد كان على يقين من انحراف أبيه، إلى الحد الذي جعله يمتنع عن أخذ نصيبه من الميراث الذي تركه، على الرغم من شدة حاجته.

قال الجنيد: مات أبو الحارث المحاسبي، وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلف أبوه مالاً كثيراً، وما أخذ منه حبة واحدة، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان، وكان أبوه واقفياً[1].

كان ذا ثقافة واسعة وعلم جم، فقد كان فقيهاً محدثاً متكلماً.. واعظاً.

خلف مؤلفات كثيرة، معظمها في الزهد والسلوك والتربية والرقائق.. وكثير منها في أصول الدين والرد على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم.

عني عناية خاصة بأمور تزكية النفس وطهارتها، حتى ليكاد هذا الجانب يستأثر باهتماماته كلها..

وقد بلغ شوطاً بعيداً في الدخول إلى أعماق النفس الإنسانية وتحليلها، والوقوف على خباياها وخفاياها، يشخص أمراضها بدقة متناهية، ويصف لها العلاج الناجع.

وهو إنما عرف بالمحاسبي، لكثرة محاسبته لنفسه.

كانت وفاته ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين من الهجرة، رحمه الله تعالى.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء ٣/ ٢٧٢.

شهادات

ولإعطاء تصور أوسع عن مكانة المحاسبي، يحسن بنا أن نقف على بعض الشهادات التي أدلى بها بعض علماء الأمة بحقه، ممن عاصره أو ممن جاء بعده:

قال الإمام الذهبي:

«المحاسبي، الزاهد العارف، صاحب التصانيف الزهدية»[1].

وقال الإمام الغزالي:

«المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه»[2].

وقال العلامة التميمي، فيما نقله عنه العلامة المناوي:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٤.

«المحاسبي، هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث، والكلام»[1].

وقال الحافظ أبو نعيم صاحب الحلية:

«المشاهد المراقبي، والمساعد المصاحبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي. كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائغين قامعاً..»[2].

وقال صاحب شذرات الذهب:

«الزاهد الناطق بالحكمة، الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب المصنفات في التصوف والأحوال. قال ابن الأهدل: كان أحد الخمسة الجامعين بين العلمين. وله مصنفات نفيسة في السلوك والأصول، وهو أحد شيوخ الجنيد»[3].

---

(١) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ١/٢١٨.

(٢) تهذيب حلية الأولياء ٣/ ٢٧١.

(٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي في تراجم سنة (٢٤٣هـ).

وقال صاحب «الأعلام»:

«المحاسبي من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً»[1].

وقال الإمام ابن تيمية:

«كان له من العلم والفضل والزهد والكلام في الحقائق ما هو مشهور»[2].

أكتفي بهذه الشهادات.. وغيرها كثير.

---

(١) الأعلام للزركلي في ترجمته.

(٢) الفتاوى ٦/٥٢١.

محاور الوعظ عند المحاسبي

عاش المحاسبي في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، حيث طغت الحياة المادية على كل مظاهر العيش بتأثير سلوك قصور الخلافة التي جعلت من بيت مال المسلمين وسيلة لترف السلطة، وتبديد الأموال كما تريد.

وفي هذه القصور ـ وفي زمن المأمون خاصة ـ مورست أكبر عملية إرهاب فكري والذي عرف فيما بعد بـ«فتنة خلق القرآن» حيث أجبر الناس على القول بذلك، وقتل في سبيل ذلك علماء، وعذب آخرون، وكان الإمام أحمد قد وقف في وجه هذا الأمر حتى فرج الله عن الأمة بثباته في وجه الفتنة..

وفي بغداد كان ثقل فرقة المعتزلة في ظل الخليفة، وكانت الفرق الأخرى من رافضة وقدرية وغيرهم يسرحون ويرتعون.

يضاف إلى ذلك ظهور انحراف العباد، وخروجهم على حدود الشريعة..

كل هذه العوامل كان لها أثرها الكبير في مواعظ المحاسبي، إذ إنما كان يعالج بها هذه الانحرافات، ويصحح المفاهيم، ويبين عوار تلك الفرق التي خرجت على مذهب أهل السنة والجماعة بفكرها. كما يبين خطر العباد المنحرفين بسلوكهم ومعتقداتهم أيضاً..

ونستطيع إجمال أهم الأمور التي سيطرت على مواعظ المحاسبي بالنقاط التالية:

١ ـ التزام الكتاب والسنة:

إن الدعوة إلى الالتزام بالكتاب والسنة هي الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه كل الانحرافات التي تشيعها الفرق الضالة من فكر وسلوك.

ولذا كان تأكيد المحاسبي على ذلك شديداً، ومتكرراً في كل مناسبة ومع كل موعظة، ومن ذلك قوله: «من شرح الله صدره، ووصل التصديق إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه، لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة: من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة».

ويوجه كل مسلم إلى أن يكون مرجعه الكتاب والسنة فيقول:

«كل أمر لاح لك ضوؤه بمنهاج الحق، فاعرضه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة».

٢ ـ التزام طريق السلف:

يقول في ذلك: «أعون الأمور لك على التقوى لزوم طريق أصحاب محمد ﷺ، وإياك والمحدثات من الأمور.. وإنك إن أخذت طريقهم فقد أخذت بغاية الصدق.. فلا تخالفهم في شيء من الأشياء، فإنهم كانوا على الحق المبين..».

ويقول: «قم يا أخي بفرائض الله، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ، واتبع آثار أصحاب نبيه، والزم سيرتهم، وتأدب بآدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهداهم..».

٣ ـ العلماء:

يرى المحاسبي أن صلاح الأمة وفسادها، بصلاح العلماء وفسادهم، ويتحدث عن فريقين من العلماء: فريق تسعد بهم الأمة، وفريق آخر رضوا بالدنيا عوضاً عن الآخرة، ثم يفصل القول في هذا الفريق الثاني ليحذره الناس ويبتعدوا عنه، فهم خلفاء الشيطان، ودعاة إبليس.

٤ ـ بيان انحراف بعض المتصوفة:

يحذر المحاسبي تحذيراً شديداً من هذا الفريق من الناس، صاحب الدعاوى العريضة، ويبين أن العبادة مهما بلغت لا تتيح لصاحبها معرفة الغيب أو الاطلاع عليه.

وكل من ادعى أنه يعرج به، أو يذهب إلى مكة في ليلة، أو يكلم الرب تعالى.. فهو كذاب ضال مضل.. والعبادة لا تسقط عن المسلم حتى الموت، والجوع ليس منزلة يسعى إليها، ويحذر من أصحاب هذا المسلك فيقول: «احذر هذا الباب، واحذر أهله، ومن إلى هذا الأمر، والزم الأمر الأول ما كان عليه محمد ﷺ..».

٥ ـ معالجة الأصول:

ويرى في سبيل الإصلاح؛ أن ينصب الاهتمام على معالجة الأصول، فإذا صلحت صلحت الفروع، فالعز يقابله التواضع.

ويتفرع عن العز: حب الرياسة والجاه عند الناس، والكبر والفخر، والغضب والحسد، والحقد والعصبية والحمية.

فإذا عالجت من نفسك داء العز، فقد عالجت كل تلك الفروع، أما إذا عالجت أمر الغضب أو الفخر من نفسك فإنك لن تقضي على أصل الداء.

ويوضح هذا فيقول: «وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل، فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتاً، كلما ذهب فرع أخلف فرعاً آخر بدله».

٦ ـ محاسبة النفس:

هذه القضية تكاد تسيطر على معظم مواعظ المحاسبي، وإنما سمي المحاسبي لكثرة محاسبته نفسه.

ولست بحاجة على سوق الأمثلة على ذلك، فمعظم ما جاء في هذا الكتاب أمثلة عليه.

ولكن مما ينبغي الإشارة إليه: أن المحاسبي وضع قواعد لهذه المحاسبة، وأرشد إلى تأملها والاستفادة منها، وأضرب مثالاً واحدً على ذلك:

إن الانزلاق لا يحدث دفعة واحدة، وإنما يبدأ بالأمر اليسير ثم ينتقل إلى ما هو أكبر.. حتى يصل الإنسان إلى القعر.

وفي سبيل تفادي ذلك، لا بد من محاسبة نفسه على الأمر الصغير.

يقول في ذلك:

«إن العبد إنما يؤتى من قبل التهاون باليسير، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير.

فيكون أوله: كان تحفظاً، ثم صار انبساطاً، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكبر منه.. فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك.. ففي ترك اليسير، ترك اليسير والكثير».

وهكذا لم تعد الموعظة مجرد إيقاظ للحس والشعور بالخطر، بل هي بيان لسبيل النجاة.

٧ ـ أمر النية:

وهذا جانب آخر يأخذ مساحة واسعة من مواعظ المحاسبي، فالنية هي التي تحدد مسار العمل وقيمته عند الله، ودرجة الإخلاص فيه، وتصفيته من الشوائب، ولا شك بأن قضية «النية» تستحق هذا القدر من الاهتمام والرعاية، لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إنما الأعمال بالنيات».

ويرى المحاسبي أن من المساعدات على تحرير النية والتأكد من سلامتها طرح الأسئلة التالية على النفس: «لِمَ عملت؟ لِمَ لمْ أعمل؟ ولِمَ لا أعمل..؟»

ويقول: «افحص النية، واعرف الإرادة، فإن المجازاة بالنية».

٨ ـ الطهارة:

الطهارة شرط في صحة العبادة، ولذا فهي تسبق الصلاة، وكذلك هنا في أمر النفس، فالطهارة تسبق العمل.

فالإنسان لا بد أن يخلي من نفسه خلقاً سيئاً، ليقوم مقامه خلق حسن.

يقول المحاسبي: «فلا تزال كذلك في البحث عن مساوئ نفسك، كلما ظهر لك خلق سيء، نفاه خلق حسن، حتى تورث بذلك الطهارة».

وفي ظل هذا المعنى حرص المحاسبي على التحذير من معاصي القلوب، والحض على التقرب إلى الله بطاعات القلوب، في كلام مطول مفصل.

بل يرى المحاسبي أن التطهير أولى من العمل،

لأن من لم يتطهر قبل العمل، فإن الشر يمنع من منفعة الخير، فترك الشر أولى بالعبد.

٩ ـ العقيدة الصحيحة:

ليست الموعظة عند المحاسبي ـ وكذلك عند أئمة السلف ـ هي ترغيب في الفضائل، وترهيب من الآثام، بل هي أيضاً وسيلة لبيان العقيدة الصحيحة، والتوجيه إليها، وبيان الانحرافات في هذا الباب ليحذرها المسلم.

وفي ثنايا المواعظ كثيراً ما ورد بيان دقائق التوحيد التي لا ينتبه إليها كثير من الناس.

أكتفي بهذا القدر في بيان محاور الوعظ عند المحاسبي، وغيرها كثير، فهو إنما كان يلقي بالموعظة معاجلة لأمر رآه، أو لأمر سئل عنه، فهو في هذا إنما يعالج واقع الناس في شتى ميادين الحياة.



مَوَاعِظُ
الإمَام الحَارِث المُحَاسِبِي

التزام الكتاب والسنة

قال أبو عبد الله:

من شرح الله صدره، ووصل التصديق إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه، لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة، من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة[1].

العمل بكتاب الله تعالى

قال أبو عبد الله:

اعلم أن فريضة كتاب الله:

العمل بحكمه من الأمر والنهي.

والخوف والرجاء لوعده ووعيده.

والإيمان بمتشابهه.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٣٦)، للحارث المحاسبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢.

والاعتبار بقصصه وأمثاله.

فإذا أتيت بذلك، فقد خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن عذاب الشك إلى رَوْح اليقين[1]، قال الله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2].

وإنما يميز ذلك ويرغب فيه أهل العقل[3] عن الله، الذين عملوا في إحكام الظاهر، وتنزهوا عن الشبه[4].

تحرير النية

قال أبو عبد الله:

افحص عن النية، واعرف الإرادة، فإن المجازاة بالنية، قال رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[5][6].

---

(١) الرَّوح - بفتح الراء -: الراحة.
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٧).
(٣) أهل العقل: أهل الفهم.
(٤) رسالة المسترشدين ص(٣٨).
(٥) متفق عليه.
(٦) رسالة المسترشدين ص(٤٥).

حسن الاستماع

قال أبو عبد الله:

إني أحثك على حسن الاستماع، لتدرك به الفهم عن الله عز وجل في كل ما دعاك إليه.

فمن استمع إلى كتاب الله عز وجل، أو إلى حكمه، أو إلى علم، أو إلى موعظة، وهو لا يحدث نفسه بشيء، غير ما يستمع إليه، وقد أشهد قلبه ما يستمع إليه، يريد الله تعالى بذلك، كان له فيه ذكرى، لأن الله تبارك اسمه قال ذلك[1].

وهو كما قال، وبذلك وصف المؤمنين وأمرهم به، فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾[2].

وروي عن وهب بن منبه[3]، أنه قال: من أدب

---

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد﴾** [سورة ق، الآية (٣٦)].

(٢) سورة الزمر، الآية (١٨).

(٣) وهب بن منبه: قال الذهبي: ولد سنة أربع وثلاثين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة، كان كثير النقل من كتب الإسرائيليات، قال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشيء من القدر ثم رجع.

الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل.

وذلك هو الاستماع، كما يحب الله تعالى، وهو:

أن يكف العبد جوارحه أن يشغلها بشيء، فيشتغل قلبه به عما يسمع.

ويغض طرفه، لئلا يلهو قلبُه بما يرى.

ويحضر عقله، فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه.

ويعزم أن يفهم، فيعملَ بما يفهم[1].

أصلح نفسك

قال أبو عبد الله:

اشتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك، فإنه كان يقال: كفى بالمرء عيباً أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، أو يمقت الناس فيما يأتي مثله، أو

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٢٨ ـ ٣٠) بتصرف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

يؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه[1].

البحث عن النجاة

قال أبو عبد الله:

انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها.

فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلتُ كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء.

وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها، فعلقت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً، غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة.

ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن المهالك لمن خالفهم.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٥٠).

ثم رأيت الناس أصنافاً:

فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز.

ومنهم الجاهل، فالبعد منه غنيمة.

ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها.

ومنهم: حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم: حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم: متشبه بالنساك، متحرٍ للخير، لا غناء عنده ولا نفاذ لعلمه، ولا يعتمد على رأيه[1].

ومنهم: منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى.

ومنهم: متوادون، على الهوى واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون.

---

(١) هذا الصنف من الناس، يتعبدون على غير أساس من علم، فينحرفون بذلك عن طريق الهدى.

ومنهم: شياطين الإنس، عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وفي العرف موتى.

فتفقدت في الأصناف نفسي، وضقت بذلك ذرعاً.

فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر: فتبين لي من كتاب الله وسنة نبيه، وإجماع الأمة: أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى.

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي،

ووقفت عند اختلاف الأمة، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذاراً من الأهواء المردية، والفرقة الهالكة، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، ألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي.

ثم وجدت ـ باجتماع الأمة ـ في كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة:

في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه.

والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده.

والإخلاص لله تعالى بطاعته.

والتأسي برسوله ﷺ.

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافاً. ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله عليه الصلاة والسلام، المؤثرين الآخرة على الدنيا. أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم، والموصوفين بآثارهم، واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً، كما قال رسول الله ﷺ: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)[1] وهم المتفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٥).

لاختلاف الأمة، فانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً، ولم أقصر في الاحتياط، ولا في النصح، فقيض لي الرؤوف بعباده قوماً، وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى.

ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة، لا يرجّون أحداً في معصيته، ولا يقنِّطون أحداً من رحمته.

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء.

يحببون الله تعالى إلى العبد بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى.

علماء بعظيم قدرته.

علماء بكتابه وسنته.

فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره.

ورعين عن البدع والأهواء، تاركين للتعمق

والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم.

مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم.

مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجتزئين بالبلغة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين في الحلال.

مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد.

مزرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل امرئ منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة وأقاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المقيم، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها[١].

فتبين لي فضلهم، واتضح لي نصحهم، وأيقنت

---

(١) لعل المحاسبي ـ رحمه الله ـ أراد ببيان هذه الصفات التنبيه إلى أوصاف العلماء الذين يجدر بالمسلم أن يلازمهم ويقتبس من علمهم وأدبهم وفضلهم.

أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشد، فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم سبباً، ولا أوثر عليهم أحداً[1][2].

صفات المربين

قال أبو عبد الله:

اطلب آثار من زاده العلم خشية، والعملُ بصيرة، والعقلُ معرفة.

---

(١) الوصايا، للحارث المحاسبي ص(٢٧ ـ ٣١)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده عام ١٩٦٥م.

(٢) قد يقول القارئ الكريم: هذه تجربة المحاسبي يصف لنا تفاصيلها ودقائقها، فأين الموعظة فيها؟

والواقع أن الموعظة إنما هي خلاصة تجربة. وتجربة المحاسبي هذه فيها من المواعظ الشي الكثير، ولست بصدد تعداد ذلك. فهي بينة واضحة.

ولكن المحاسبي على جلالة قدره وسعة علمه، لم يسعه أن يعيش منفرداً، بل وجد أن الذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، فالجماعة الصالحة تعين الفرد على استقامة سلوكه، وتصحح له اعوجاجه، فكان لا بد من البحث عنها كما فعل المحاسبي، فهو ساعٍ إليهم ليستفيد من نصحهم وإرشادهم.

فإن حجبك عن منهاجهم فَقْدُ الأدب، فارجع بالذم على نفسك. ولن يخفى على أهل العلم صفة المخلصين.

واعلم أن في كل فكرة أدباً، وفي كل إشارة علماً.

وإنما يميز ذلك من فهم عن الله عز وجل مراده، وجنى فوائد اليقين من خطابه.

وعلامة ذلك - في الصادق - إذا نظر اعتبر.

وإذا صمت تفكر، وإذا تكلم ذكر.

وإذا منع صبر، وإذا أُعطي شكر.

وإذا ابتلي استرجع، وإذا جهلَ عليه حَلُم.

وإذا علِم تواضع، وإذا علَّمَ رفق.

وإذا سئل بذل.

شفاء للقاصد، وعون للمسترشد.

حليف صدق، وكهف بِر.

قريب الرضا في حق نفسه، بعيد الهمة في حق الله تعالى.

نيته أفضل من عمله، وعمله أبلغ من قوله.

مواطنه الحق، ومعقله الحياء، ومعلومه الورع، وشاهده الثقة.

له بصائر من النور يبصر بها، وحقائق من العلم ينطق منها، ودلائل من اليقين يعبر عنها.

وإنما يواصَلُ بذلك من جاهد لله تعالى نفسه، واستقامت لطاعته نيته، وخشي الله في سره وعلانيته، وقصر الأمل، وشمر مئزر الحذر، وأقلع بريح النجاة في بحر الابتهال.

فأوقاته غنيمة، وأخواله سليمة، لم يغتر بزخرف دار الغرور، ولم يَلْهُ ببريق سراب نسيمها عن أهوال يوم النشور.

شعاره الثقة، وحاله المراقبة، ألا ترى لقول رسول الله ﷺ: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

يحسبه الجاهل صمِّيتاً عييا، وحكمته أصمتته.

---

(١) متفق عليه بلفظ: (أن تعبد الله كأنك تراه..) [البخاري ٥٠، مسلم ٩].

ويحسبه الأحمق مهذاراً، والنصيحة ـ لله ـ أنطقته.

ويحسبه غنياً، والتعفف أغناه.

ويحسبه فقيراً، والتواضع أدناه.

لا يتعرض لما لا يعنيه، ولا يتكلف فوق ما يكفيه.

ولا يأخذ ما ليس بمحتاج إليه، ولا يدع ما وُكِّلَ بحفظه.

الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

قد أمات بالورع حرصه، وحسم بالتقى طمعه، وأفنى بنور العلم شهواته.

فهكذا فكن.

ولمثل هؤلاء، فاصحب، ولآثارهم فاتبع، وبأخلاقهم فتأدب، فهؤلاء الكنز المأمون، بائعهم بالدنيا مغبون.

وهم العدة في البلاء، والثقات من الأخلاء.

إن افتقرت أغنوك، وإن دعوا الرب لم ينسوك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1][2].

---

(١) سورة المجادلة، الآية (٢٢).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٠١).

أيامك قليلة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن أيامك قليلة، ونفسك واحدة، فإن فنيت أيامك فلا رجعة لك فيها، ولا عوض لك عنها، وإن عطبت نفسك فلا نفس لك سواها.

وهل تدري - يا أخي - ما إصلاح ما بينك وبين الله؟

ألا يأتيه منك شيء إلا كان له فيه رضى.

وألا يأتيك منه شيء إلا كان لك به رضى.

فتعاهد يا أخي أيامك، في ليلك ونهارك، وجميع أحوالك، ما أنت فيه، وما أنت عليه[1].

إصلاح النية

قال أبو عبد الله:

اعلم - رحمك الله - أن أساس التقوى، وأصلَ ما بنى عليه العابدون، والذين صدقوا الله عز وجل، النية في جميع ما أرادوا به الله تعالى: من ترك معصية، أو عمل طاعة.

---

(١) آداب النفوس، ص(١٨٧).

فعليك بإصلاح نيتك، فإن بها صلاح آخرتك ودنياك جميعاً، وهو نجاة لك عند المهالك كلها، لا غنى بك عنه، ولا تصل إلى شيء من الأشياء إلا به، وهو حبل الله المتين.

فاقصد ـ أول ما تقصد ـ إلى نيتك، فإنما العزم بالنية، ولا يفتح لك باب، ولا يصل إليك روح، ولا شيء من معرفة الرب تبارك وتعالى إلا به، فعليك بنيتك، فإنه عمل خفي فيما بينك وبين الله تعالى، وبه يسكن الإخلاص والصدق في القول والفعل إلى القلب.

فلا تعملن شيئاً، ولا تأكل ولا تشرب ولا تتكلم ولا تنظر، ولا يراك الله تعمل شيئاً إلا بنية.

واعلم ـ رحمك الله ـ أنه إذا كانت النية صحيحة جيدة، كان معك الجند الذي لا يهزم، والحارس الذي لا يغفل.

وهي رأس مال لا ينفد، وهي رأس مالك، وكسبك، وخاتمة الكيس[1].

---

(١) الكيس: ضد الحمق. وفي الحديث الشريف: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت».

فاللَّهَ اللَّهَ، عليك بصلاح نيتك، فإنك بها تدرك الإخلاص، فإن عامة الخلق قد اجتهدوا في أنواع العبادات بلا نية.

وهي موضع مسكن الهيبة والتعظيم، والخوف والحذر، والوجل والحياء من الله عز وجل.

فاقصد قصد النية: أن تنقيها من جميع الآفات، وتعملها باباً[1].

منَّ الله تعالى علينا وعليك بمعرفة النية وصلاحها من جميع العيوب، ولو كان عيباً واحداً لأهلك الإنسان[2].

الصبر

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد، وإذا سمعت كلمة تغضبك في عرضك فاعف واصفح، فإن ذلك من عزم الأمور[3].

---

(١) أي تعملها باباً تدخل منه إلى الأعمال.

(٢) شرح المعرفة ص(٦٧)، للحارث المحاسبي، تحقيق صالح أحمد الشامي، دار القلم بدمشق.

(٣) رسالة المسترشدين ص(٥٠).

دلائل التقوى

قال أبو عبد الله:

إني وجدت النصحاء ـ رحمة الله عليهم ورضوانه ـ متفقين على أن سعادة العبد في الدنيا والآخرة، التمسك بتقوى الله.

ألا وإن دلائل التقوى، هي: الورع عن محارم الله، والقيام بحدوده، وتصفية القلوب من مكارهه.

ووجدتهم متفقين على أن فساد الدين، في الجراءة على الله تعالى.

ألا وإن دلالة الجراءة على الله عز وجل؛ ترك الورع، والتعدي لحدود الله تعالى، والإصرار على معصيته.

عصمنا الله وإياكم من ذلك[1].

تحذير من الموقف

قال أبو عبد الله:

---

(١) الوصايا ص(٣٢).

يا أخي، إني أحذرك ـ ونفسي ـ مقاماً، عنت فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذلَّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين. وقد جمعهم الواحد القهار، الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك له في حكمه.

جمعهم بعد طول البلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً ـ أمرَه في الدنيا ونهاه ـ حتى يسائله عن عمله، في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فإنه لا يصدِّق إلا الصادقين، ولا يكذب إلا الكاذبين[1].

آداب

قال أبو عبد الله:

الزم الأدب، وفارق الهوى والغضب، واعمل في أسباب التيقظ، واتخذ الرفق حزباً، والتأني صاحباً، والسلامة كهفاً، والفراغ غنيمة، والدنيا مطية، والآخرة منزلاً[2].

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٣٦).

(٢) رسالة المسترشدين ص(٧٩).

معرفة العيوب

قال أبو عبد الله:

عليك بمعرفة العيوب، باباً باباً، وجارحة جارحة، من عيوب الطاعات والمعاصي كلها، فإنه باب عظيم، به تصل إلى التقوى إن شاء الله تعالى[1].

الاقتصاد

قال أبو عبد الله:

أوصيكم بالاقتصاد فيما رزقتم، فإنه من صلاح الدين.

وأحذركم الإسراف في وقت الغنى، فإن الله يكره السرف في كل شيء، وقد ذم الله تعالى المسرفين، ومدح الذين لم يسرفوا ولم يقتروا.

وبلغنا عن بعض التابعين أنه قال: كفى بهذا إسرافاً أن يأكل العبد ما يشتهي ويلبس ما يشتهي.

وبلغنا عن بعض أهل العلم قال: يجيء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها، فيقال لهم:

---

(١) شرح المعرفة ص(٦٩).

أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها.

ألا فكونوا مقتصدين في أحوالكم من غير إقتار ولا إسراف[1].

التحذير من الغفلة

قال أبو عبد الله:

احذر مواطن الغفلة، ومخاتل العدو[2]، وطربات الهوى، وضراوة الشهوة وأماني النفس[3].

النصيحة

قال أبو عبد الله:

ابذل النصيحة لله وللمؤمنين، وشاور في أمرك الذين يخشون الله، واعلم أن من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك[4].

---

(١) الوصايا ص(٦٣).

(٢) أي مخادعته.

(٣) رسالة المسترشدين ص(٨١).

(٤) رسالة المسترشدين ص(٧٠).

الصدق

قال أبو عبد الله:

آثر الصدق في كل موطن تغنم، واعتزل الفضول تسلم.

فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى رضا الله تعالى، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يورث سخط الله[1].

إحراز ما يمكن من الخير

قال أبو عبد الله:

إني تدبرت أحوالنا في دهرنا هذا، فأطلت فيه التفكر، فرأيت زماناً مستصعباً، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان، وانتقضت فيه عرى الإسلام، وتغيرت فيه معالم الدين، واندرست الحدود، وذهب الحق وباد أهله، وعلا الباطل وكثر أتباعه.

ورأيت فتناً متراكمة، يحار فيها اللبيب، ورأيت هوى غالباً، وعدواً مستكلباً، وأنفساً والهة، عن التفكير

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٧٢).

محجوبة، قد جللها الرياء، فعميت عن الآخرة.

فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف.

فلما رأيت البلاء محدقاً، والفتن بنا محيطة، أشفقت من ذلك. ونظرت ـ على الضرورة ـ إلى أمر، هو بين أمرين: إذا لم نكن ممن يقوم بكل ما أمر الله به، فلا ينبغي لنا أن نضيع كل ما أمر الله به، فنهلك هلاك الأبد.

ألا، فراقبوا الله عز وجل.

ولا تخرجوا أنفسكم من الخير كله، ولا تقتحموا ـ بمجهودكم ـ في الشر كله.

ولا تميلوا بأهوائكم عن الحق كله، ولا تستهينوا بأمر الله كله.

وتمسكوا بالقليل من كثير يجب عليكم، وإن كان لا عذر لأحد في تضييع شيء من أمر الله، ولكن سداد من عوز[١]، وبعض الشر أهون من بعض، والقليل يتمسك به، خير من ذهاب الجميع.

---

(١) أي كفاية من فقر وقلة.

فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (سيأتي بعدكم قوم إن تمسكوا بعشر ما أنتم عليه نجوا[1])[2].

الصمت

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الطريق إلى الحكمة الصمت، فإنك إذا صمتّ ملكت قلبك، وليكن صمتك تفكرا، ونظرك عبرة، وكلامك ذكرا.

ولا تختر على الصمت شيئاً، إلا أن يكون لزمك فرض من فرائض الله تعالى[3].

العمل المثمر

قال أبو عبد الله:

---

(١) أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (إنكم في زمان من ترك منكم عُشرَ ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا) رقمه (٢٢٦٧) وضعفه الألباني.

(٢) الوصايا ص(٣٣).

(٣) شرح المعرفة ص(٥٦).

اعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

وأدم شكرك

واقصر من أملك، وزر القبور بهمك، وجُلْ في الحشر بقلبك.

ثم رُمَّ جهازك[1]، وافْرُغْ من زادك[2].

وكن وصي نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك[3].

واعقل أمرك، وتيقظ من سنتك، فإنك مسؤول عن عمرك.

واعلم أن من جعل همه الآخرة، كفاه الله أمر دنياه[4].

أصول وضوابط

قال أبو عبد الله:

---

(١) أي أصلح ما تحتاج إليه.

(٢) أي أنجز إعداده.

(٣) أي أنفذ ما أردت من فعل الخير، ولا تترك ذلك حتى توصي به من بعدك.

(٤) رسالة المسترشدين ص(٧٢ ـ ٧٦) باختصار.

اعلم ـ رحمك الله ـ أن الصدق والإخلاص أصل كل حال:

فمن الصدق يتشعب: الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس.

وعن الإخلاص يتشعب: اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم.

ولكل أصل من هذه الأحوال ثلاث علامات يعرف بها:

فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به:

ـ صدق القلب بالإيمان تحقيقاً.

ـ وصدق النية في الأعمال.

ـ وصدق اللفظ في الكلام.

والصبر في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به:

ـ الصبر عن محارم الله.

ـ والصبر على اتباع أمر الله.

ـ والصبر عند المصائب احتساباً لله.

والقناعة في ثلاثة أشياء:

ـ قلة الغذاء بعد وجوده.

- وصيانة الفقر عند العدم وقلة الأسباب.
- والسكون إلى أوقات الله عز وجل[1] مع حلول الفاقة.

والأنس في ثلاثة أشياء:

- أنس بالعلم والذكر في الخلوة.
- وأنس باليقين والمعرفة مع الخلوة.
- وأنس بالله عز وجل في كل حال.

والرضا: نظام المحبة، ونفس التوكل، وروح اليقين.

فهذه شعب الصدق المأخوذة بأوصاف العلم.

وأما شعب الإخلاص: فلا يسمى المخلص مخلصاً حتى يفرد الله عز وجل من الأشباه والأنداد، والصاحبة والأولاد. ثم إرادته الله بإقامة التوحيد، وجمع الهم له وبه في النفل والفرض.

وصحة اليقين في ثلاثة أشياء:

- سكون القلب إلى الثقة بالله.

---

(١) لعل المراد: ما قضى الله به في كل وقت. فكل شيء عنده بمقدار.

ـ والانقياد لأمر الله.

ـ والإشفاق والوجل من سابق العلم.

ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين، وهل رأيت خائفاً لما لم يستيقنه؟

والخوف في ثلاثة أشياء:

ـ خوف الإيمان: وعلامته مفارقة المعاصي والذنوب، وهو خوف المريدين.

ـ وخوف السلف: وعلامته الخشية والإشفاق والورع، وهو خوف العلماء.

ـ وخوف الفوت: وعلامته بذل الجهد في طلب مرضاة الله، بوجود الهيبة والإجلال لله عز وجل، وهو خوف الصديقين.

ـ ومقام رابع في الخوف: خص الله به الملائكة والأنبياء عليهم السلام، وهو خوف الإعظام، لأنهم آمنون في أنفسهم بأمان الله لهم، فخوفهم تعبدهم لله إجلالاً وإعظاماً.

والمحبة في ثلاثة أشياء، لا يسمى محباً لله عز وجل إلا بها:

- محبة المؤمنين في الله عز وجل، وعلامة ذلك: كف الأذى عنهم، وجلب المنفعة إليهم.

- ومحبة الرسول ﷺ لله عز وجل، وعلامة ذلك: اتباع سنته، قال الله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

- ومحبة الله عز وجل في إيثار الطاعة على المعصية.

والإجلال والتعظيم من الحياء بمنزلة الرأس من الجسد الذي لا غنى لأحدهما عن صاحبه، وإذا استحيا العبد من ربه أجلَّه، وأفضل الحياء: المراقبة لله عز وجل.

والمراقبة في ثلاثة أشياء:

- مراقبة الله في طاعته بالعمل.

- ومراقبة الله في معصيته بالترك.

- ومراقبة الله في الهمِّ والخواطر، لقول النبي ﷺ: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكف تراه فإنه يراك)[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨).

ومراقبة القلب لله عز وجل، أشد تعباً على البدن من مكابدة قيام الليل، وصيام النهار، وإنفاق المال في سبيل الله[1].

مفقودات

قال أبو عبد الله:

فقدنا ثلاثة أشياء:

حسن الوجه مع الصيانة[2].

وحسن القول مع الأمانة.

وحسن الإخاء مع الوفاء[3].

اختيار الأصحاب

قال أبو عبد الله:

اطلب الجار ثم الدار، والرفيق ثم السفر.

واحذر أن تصحب الحسود، فإنه مضادّ لله تعالى في قضائه.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٧٠ ـ ١٨١).

(٢) الصيانة: العفاف والسلامة من الإعجاب والكبر.

(٣) الرسالة القشيرية ص(٢٤٢)، تحقيق معروف زريق، دار الجيل، بيروت.

ولا تصحب من يغتاب، أو يبهت، أو يكذب، أو ينم، أو ذا وجهين، أو ذا لسانين، أو ذا قلبين. فاتقِ هؤلاء كلهم، فإنهم شين في الدنيا وعذاب في الآخرة.

ولا تصحب إلا مؤمناً صادقاً.

والحذر الحذر من أهل زمانك، ومن نفسك خاصة، فإنها عدو خفي.

واحذر إبليس وأعوانه، وكن مستيقظاً ـ دهرك ـ في أمورك كلها[1].

تطهير الكسب

قال أبو عبد الله:

تحرزوا في مكاسبكم من فنون الربا، فإنه بضع وسبعون باباً.

واتقوا الخيانة، والنجش والتطفيف، والكذب، والحلف، والمدح والذم عند المبايعة وأشباه ذلك.

فتورعوا فيها واحتاطوا لأنفسكم، فإن دلالة التقوى في الورع، وبالورع يعرف المتقون.

---

(١) شرح المعرفة ص(٨٨).

وقد بلغنا عنه ﷺ أنه قال: (من غش مسلماً فليس منا[1])[2].

نوافل أم مكملات؟

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا تطوع الناس بالصوم والصلاة طلباً للثواب، ألا فقدموا النية في استكثار التطوع لإكمال الصلاة المفروضة، فإن فيها خللاً كثيراً، فإن أمنية العاقل من جميع أعمال بره ونوافله أن يكمل بها فرائضه.

فإنه بلغنا أن بعض الصحابة قال: أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل للحفظة: انظروا هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت الفرائض من تطوعه، فإن لم تكمل الفريضة، ولم يكن له تطوع أخذ بطرفيه وألقي في النار، أعاذنا الله وإياكم من ذلك[3].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «من غش فليس مني» (١٠٢).

(٢) الوصايا ص(٦٢).

(٣) أخرج أبو داود والدارمي وابن ماجه عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة، =

فأيقنتُ أني مطلوب بفرائض لم تتم، ولا قاربت التمام.

ووجدت من النقص في التطوع أضعاف نقص الفرائض.

وضقت لذلك ذرعاً، وخشيت ألا تكمل فريضة اتحدت بنوافل أضيع منها، وكيف يُصلح ثوب قديم البلى بالخرق البالية؟

فأيقنت من عملي خلاف التمام، وأشفقت أن أتردى مع المتردين فيها.

فأصبحت مضطراً إلى الفرائض بكمالها، فقيراً إلى التطوع لإتمام ما انتقص من حدودها، شديد الحاجة إلى اكتساب البر لتكفير مساوئها.

فأنا في شغل عن طلب النوافل، وقد ضيعت كثيراً من حدود الفرائض.

فتدبروا أمركم:

= فإن وجد صلاته كاملة كتبت له كاملة، وإن كان فيها نقصان قال الله تعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع، فأكملوا له ما نقص من فريضته، ثم الزكاة، ثم الأعمال على حسب ذلك).

فإن يكن الذي حل بي من التفريط حل بكم بعضه. فاستكثروا من النوافل لإكمال الفرائض.

فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة[1].

إخواني: فلتكن إرادتكم في استكثار النوافل لإكمال الفرائض، فإن ذلك أفضل النيات، وأكرم الهمم، وأوفقها لمحبة الله عزَّ وجلَّ[2].

التزام طريق الصحابة

قال أبو عبد الله:

أعون الأمور لك على التقوى لزوم طريق أصحاب النبي ﷺ.

---

(١) هذه الكلمة لأبي بكر رضي الله عنه، عندما حضرته الوفاة، أوصى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيها: «اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عز وجل عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة..». انظر: تهذيب حلية الأولياء، بقلم صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي (١/ ٦٠).

(٢) الوصايا ص(١٠٠).

وإياك والمحدثات من الأمور، والرغبة عن طريقهم، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار.

أعاذنا الله تعالى وإياك من النار.

واعلم أنك إذا أخذت طريق أصحاب النبي ﷺ فقد أخذت بغاية الصدق، وأفلحت حجتك، ونلت بغيتك.

فلا تخالفهم في شيء من الأشياء، فإنهم كانوا على الحق المبين، والنور الواضح، فاتبع سبيلهم ومنهاجهم، ولا تعرج عنهم، فيعرج بك، ولا تخالفهم فيخالف بك[١].

التزين بالعلم

قال أبو عبد الله:

احذر التزين بالعلم، كما تحذر العجب بالعمل.

ولا تعقدنَّ باطناً من الأدب، ينقضه عليك ظاهر من العلم[٢].

---

(١) شرح المعرفة ص(٦٩).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٣٣).

قيد العلم

قال أبو عبد الله:

قيد الجوارح بأحكام العلم.

وراع هَمَّك بمعرفة قرب الله منك، وقم بين يديه مقام العبد المستجير تجده رؤوفاً رحيماً[1].

طريق السلف

قال أبو عبد الله:

اعلم - يا أخي - أن الله جل ذكره، قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة، وشرع لك شرائع، دلَّك عليها، وأمرك بها، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب، رحمة لك، وحذرك نفسه شفقة منه عليك.

فقم - يا أخي - بفرائضه، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ.

واتبع آثار أصحاب نبيه، والزم سيرتهم، وتأدب بآدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهداهم، وتوسل إلى الله بحبهم، وحبَّ من أحبهم.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٨٦).

فهم الذين أنابوا إليه، وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحباباً وأخداناً.

واعلم ـ يا أخي ـ أن علامة حبك إياهم: لزومك محجتهم[1]، مع استقامة قلبك، وصحة عملك، وصدق لسانك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك، كما كان القوم في هذه الأحوال.

فهذا يحقق منك صدق دعواك لحبهم، والتمسك بسنتهم.

وإن كنت مدعياً لحبهم، وأنت مخالف لأفاعيلهم، فأنت مائل إلى موافقه هواك، عادل عن مسيرتهم، ولست بصادق في دعواك.

فلا تجمعن على نفسك:

ـ الخلاف لمحجتهم.

ـ والدعوى أنك على سبيلهم.

فمتى فعلت ذلك: صح منك جهل وكذب، وتعرضت للمقت من اللطيف الخبير[2].

---

(١) المحجة: الطريقة والسنة.

(٢) آداب النفوس ص(٢٨)، للحارث المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، ط٢.

التدبر عند تلاوة القرآن

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه، ألا فأريدوا بتلاوتكم:

التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه.

ووعده ووعيده.

وأمره ونهيه.

وحلاله وحرامه.

والعمل بحدوده وفرائضه.

فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى.

يا قوم: إنكم ما عملتم بحدود القرآن، وصلتم إلى أجزل الثواب، وأعلى المنازل عند الله تعالى.

وإن ضيعتم حدود القرآن، وتلوتموه للثواب، خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غداً، ويهوي مع الهاوين بعد تلاوة القرآن، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

فهذا فضل ما بين الرجلين:

أحدهما: يتلو كتاب الله لفضل ثوابه، وعساه مضيعاً لكثير من حدوده، فهو كمن لم يتل شيئاً.

والآخر: يعمل بحدود القرآن ـ وإن كان أعجمياً ـ فهو تال لكتاب الله أجمع.

جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده[(١)].

دعاء المضطر

قال أبو عبد الله:

إذا دعا الناس ربهم بالألسن، وبسطوا الأيدي، وقلوبهم عنه ساهية، ألا فأحضروا القلوب مع الألسن، فإنه أبلغ.

فراقبوا الله، ولا تحزنوا، ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله عز وجل، إجابه المضطر إذا دعاه.

فهذا فضل ما بين الرجلين:

أحدهما: داع بلسانه، وقلبه غافل عن الله ساه.

والآخر: وجل، يتضرع بقلبه ولسانه.

---

(١) الوصايا ص(١٠٧).

جعلنا الله وإياكم من الوجلين[1].

تفقد أحوال النفس

قال أبو عبد الله:

اعرف - يا أخي - نفسك، وتفقد أحوالها، وابحث عن عقد ضميرها[2]، بعناية منك، وشفقة منك عليها، مخافة تلفها، فليس لك نفس غيرها، فإن هلكت فهي الطامة الكبرى والداهية العظمى.

فأحدَّ النظر إليها بعين نافذة البصر، حديدة النظر، حتى تعرف آفات عملها، وفساد ضميرها، وتعرف ما يتحرك به لسانها.

ثم خذ بعنان هواها، فاكبحها بحكمة الخوف، وردَّها بجميل الرفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها، وتصحيح الإرادة في ضميرها، وصدق المنطق في لفظها، واستقامة النية في قلبها، وغض البصر عما كره مولاها، مع ترك فضول النظر إلى ما قد أبيح النظر إليه، مما يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا.

---

(١) الوصايا ص(١٠٦).

(٢) عقد ضميرها: أي ما استقر في ضميرها.

وخذها بالصمم عن استماع شيء مما كره مولاها، في فرحها وحزنها.

وخذها بتصحيح ما يصل إلى بطنها من غذائها، وما تستر به عورتها.

وليكن ـ مع ذلك ـ منك تيقظ، وإزالة للغفلات عن قلبك، عند كل حركة تكون منك وسكون، وعند الصمت والمنطق، وعند المدخل والمخرج، والمنشط، والحب والبغض، والضحك والبكاء.

فتعاهدها ـ يا أخي ـ في ذلك كله، فإن لها في كل نوع ذكرناه من ذلك كله: سبب لهواها، وسبب لطاعتها، وسبب لمعصيتها.

فإن غفلت: ووافقت هواها، وغفلت عن مفاتشة هممها، كان جميع ما ذكرت لك من ذلك كله معاصٍ منها.

وإن أمنت سقطت بالغفلة[1]، ثم رجعت بالتيقظ إلى خلاف هواها، فكان معك الندم على غفلتك وسقطتك، رجع ذلك كله إحساناً وطاعات.

---

(١) أي أخطأت بسبب الغفلة.

فتفقدها - يا أخي - بالعناية المتحركة[1] منك لها، مخافة تلفها، فإنك تقطع على إبليس طريق المعاصي، وتفتح على نفسك باب الخيرات[2].

الاستفادة من الوقت

قال أبو عبد الله:

حصِّل الأوقات، واعرف ما يذهب به ليلك ونهارك.

وجدد في كل وقت توبة.

واجعل عمرك ثلاث ساعات:

- ساعة للعلم.
- وساعة للعمل.
- وساعة لحقوق نفسك وما يلزمك.

واعتبر بمن مضى، وتفكر في منصرف الفريقين بين يدي الله تعالى:

- فريق في الجنة برضاه.

---

(١) العناية المتحركة: يعني الدائمة.

(٢) آداب النفوس ص(٤١ - ٤٢).

ـ وفريق في السعير بسخطه.

واعرف قرب الله منك، وأكرم الحفظة الكاتبين[١].

مرجعية المسلم

قال أبو عبد الله:

كل أمر لاح لك ضوؤُه بمنهاج الحق، فاعرضه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة، فإن خفي عليك أمر، فخذ فيه رأي من ترضى دينه وعقله[٢].

الأنس والوحشة

قال الجنيد:

كنت كثيراً أقول للحارث: عزلتي أنسي، وتخرجني إلى وحشة رؤية الناس والطرقات؟

فيقول لي:

كم تقول لي: أنسي في عزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً، ولو أن النصف الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم[٣].

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٤٤).

(٢) رسالة المسترشدين ص(٨٢).

(٣) تهذيب حلية الأولياء ٣/ ٢٧١.

الناس من حيث العمل

قال أبو عبد الله:

اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن الناس في العمل ثلاثة:

رجل سوَّفته نفسه مع معرفة القصد، حتى قدم على الله عز وجل، فهذا الذي يحبس في الجسر الطويل[1]، أو يغفر الله تعالى له.

ورجل عرف القصد واشتهاه بقلبه، وتمنى على الله تعالى منازل الأبرار، وزعم أنه لاحقٌ بهم، بحبه لهم، فهذا مخدوع.

ورجل عرف القصد، وأخذ في أهبة الرحيل إلى الله عز وجل، فأخذ من نفسه لنفسه، فهذا يغتبط إذا قدم على الله تعالى.

فانظر من أي الثلاثة أنت؟[2].

خشوع القلوب

قال أبو عبد الله:

---

(١) المقصود بالجسر الطويل: الصراط.

(٢) شرح المعرفة ص(٧٧).

إخواني: إذا أحضر الناس في الصلاة أبدانهم، وتخشعوا بالجوارح، وقلوبهم ساهية عن ربهم في الخشوع، ألا فراقبوا الله، وأحضروا القلوب مع الأبدان.

وقوموا لله مقام العبيد بين يدي أربابهم بخشوع وهيبة، واستكانة وتعظيم، فقد يعظم بعضكم بعضاً، وتقنتون لمخاطبة العبيد تعظيماً واستحياء، أو رجاء أو مخافة.

أفليس الله عز وجل أولى بالتعظيم والاستحياء سبحانه وتعالى؟!

أفجهلتم فضل الله عز وجل على العباد، فلم تعظموا الجبار عز وجل بأكثر من تعظيم المخلوقين؟

فلا أقل من أن تنصتوا - ويحكم - لكلام الله عز وجل، كما تنصتون لكلام العبيد، كيلا يكون الرب عز وجل أهون عليكم من عبيده، تعالى الله عن ذلك.

ألا فراقبوا الله إخواني، واعرفوا قدر من قمتم له، وعظموه وهابوه.

ألا فكونوا وجلين من الاستهانة بأمر الله، كيلا

تنقلبوا من الصلاة خائبين، أعاذنا الله وإياكم من ذلك[1].

باب المعرفة

قال أبو عبد الله:

ما استعان أحد على نفسه وإحراز دينه بمثل المراقبة لله عز وجل ـ وبها نالوا الحياء من الله تعالى ـ وهي باب المعرفة.

وهي فرض من الله عز وجل على العباد، وقد ضيعت، وهي موجودة في كتاب الله تعالى المنزل.

بها يبلغ العبد شرف الدرجة في الدنيا والآخرة.

وبها يحظى عند الله تعالى، وعند الخلق.

وهي أصول الطاعات كلها وفروعها، وأولها وآخرها.

أركان المعرفة ومكانتها

قال أبو عبد الله:

---

(١) الوصايا ص(٩٣).

إن أول المعرفة: معرفة الله عز وجل.

والثانية: معرفة عدو الله إبليس.

والثالثة: معرفة نفسك الأمارة بالسوء.

والرابعة: معرفة العمل لله عز وجل.

فلو أن عبداً عاش دهره مجتهداً في العبادة، ولم يعرفها، ولم يعمل عليها، ثم صار إلى الله عز وجل على الجهل بها، لم ينتفع بشيء من ذلك، إلا أن يتفضل الله ـ جل ثناؤه ـ عليه.

معرفة الله تعالى

قال أبو عبد الله:

معرفة الله تعالى: هي أن يلزم قلبَك قربُه منك، وقيامه عليك[1]، وقدرته عليك وشهادته، وعلمه بك، وأنه رقيب حفيظ عليك.

وأنه واحد لا شريك له في ملكه.

وأنه عندما وعد صادق، وعندما ضمن وافٍ، وأنه عندما دعا إليه وندب العباد إليه مليء.

---

(١) المعنى: أن يلازم قلبك معرفة أنه سبحانه وتعالى قريب منك، قائم عليك.

وله وعد ينجزه، ووعيد ينفذه فيمن يشاء.

وله مقام تصير إليه الخلائق، وثواب وعقاب، ليس له شبيه ولا مثيل.

وأنه رحيم ودود، سميع عليم.

وأنه كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن.

يعلم الخفي وفوق الخفي، والضمير والخطرات والوساوس، والهمة والإرادة، والحركة والطرفة، والغمزة والهمزة، وما فوق ذلك، وما دون ذلك مما دقَّ - فلا يعرف - وجلَّ - فلا يوصف - مما كان ويكون.

وأنه عزيز حكيم.

فإذا لزم هذا قلبَك[1]، باليقين الراسخ، والعلم النافذ.

ولزم ذلك كل عضو منك وكل جارحة، وكل مفصل، وكل عرق وعصب، وكل شعر وبشر.

---

(١) أي لازم قلبك هذا وصاحبه.

واليقين بأن الله عز وجل قائم على كل ذلك، عالم لا يعزب عنه عازبة، خلقك فأحسن خلقك، وصوّرك فأحسن صورتك.

فإذا ثبت ذلك في قلبك، وصح به عزمك، وكمل به عقلك، ثبتت فيك المحاسبة، ووصلت إليك المعرفة، وقامت عليك الحجة، وكنت في مقام من الله تعالى شريف، فحفظت جوارحك وقلبك.

ولا تنال شيئاً من هذا إلا بذكر الله، وبقطع الأشغال كلها، إلا ما دلك على هذا.

فالله لا يفارق قلبك[1]، حذراً من سطواته[2]، بقدرته عليك لما قد سلف وسيكون منك، وحياء من الله تعالى لقربه منك.

فأنت العالم القائم بما يحب الله منك، والتارك له ما يكره منك.

هذا معلوم العلماء بالله تعالى، الخائفين العارفين.

---

(١) أي لا يفارق ذكر الله قلبك.

(٢) سطوات: جمع سطوة، وهي القهر بالبطش.

معرفة إبليس عدو الله

قال أبو عبد الله:

ومعرفة عدو الله إبليس، هو أن تعلم أن الجليل - جل ثناؤه وتقدست أسماؤه - قد أمرك بمحاربته ومجاهدته، في السر والعلانية، في الطاعة والمعصية.

وتعلم أنه قد عاند الله تعالى في عبده آدم عليه السلام، وضادَّه في ذريته.

تنام ولا ينام عنك، وتغفل ولا يغفل، وتسهو ولا يسهو، دائباً مجتهداً في عطبك وهلكتك، في نومك ويقظتك.

ليس راحته في أن يوقعك في المعصية، ولا أن يوقعك في رياء ولا إعجاب. إنما أمنيته أن ترِد معه حيث يورد، وهي جهنم، أعاذنا الله منها.

فإذا عرفته بهذه الصفة والمنزلة، فألزم قلبك معرفته، والحذر منه في الحق والباطل، بلا غفلة ولا سهو منك.

فحاربه أشد المحاربة، واسأل الله تعالى النصر عليه، جاهداً متذللاً بالبكاء والتضرع، ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية.

فالله الله لازم، ولا تأمنه، فما خلق الله عز وجل أشد عليك منه، فالحذر الحذر منه، فإنما هي مهجة الدم والورود على العطب، أو النجاة بفضل الله عز وجل ورحمته.

أعاذنا الله وإياك من إبليس وجنوده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

معرفة النفس

قال أبو عبد الله:

وأما معرفة نفسك الأمارة بالسوء، فضعها حيث وضعها الله تعالى، وصفها بما وصفها الله عز وجل، وقم عليها بما أمرك الله تعالى به، فإنها أعدى لك من إبليس، وإنما يقوى عليك إبليس بها، وبقبولها عنه.

فتعرَّف أي شيء طاعتها ومراداتها، وإلى ما تدعو، وبما تأمر.

فلا تغرنك بما تظهر لك، ولا ترج منها ما تأمل.

إن خلَّيت عنها شردت، وإن أعطيتها سؤلها هلكت، وإن غفلت عن محاسبتها أدبرت، وإن عجزت

عن مخالفتها غرقت، وإن اتبعت هواها تولت إلى النار.

ليس لها حقيقة، ولا لها مرجوع إلى خير.

وهي رأس البلاء، ومعدن الفضيحة، وخزانة إبليس، ومأوى كل سوء، لا يعرفها غير خالقها.

وعليك بمخالفتها وبمحاسبتها، ومعرفتها ومجاهدتها في جميع ما تدعو إليه، فليس لها دعوى حق، وإنما تسعى في هلاكها ودمارها.

فإذا عرفتها هانت عليك، وقويت عليها.

فاثبت، واستعن بالله، ولا تغفل، فإنك إذا قويت على أدب نفسك، ومخالفتها عما تهوى وتطلب، قويت على خصال الخير كلها إن شاء الله تعالى.

فبالله فاستعن في هذا كله، وابتغ مرضاته في جميع ما أمرك به.

معرفة العمل

قال أبو عبد الله:

وأما معرفة العمل لله عز وجل: أن تعلم أن الله تعالى أمرك بأمر، ونهاك عن أمر، والذي أمرك به هو

الطاعة، والذي نهاك عنه هو المعصية له.

وأمرك بالإخلاص بهما، والقصد إلى سبيل الهدى، على الكتاب والسنة، ولا يكن في ضميرك عند فعلك كله أحد إلا الله تعالى.

ولا تكن ممن ترك المعاصي الظاهرة، ولم يترك المعاصي الباطنة، فإنه ليس على هذا وعد الله بالمغفرة، ولا على هذا ضمن الجزاء والثواب.

ولا تجهدن إلى العبادة الظاهرة بفساد النية وسقم الإرادة، فتعود طاعتك معاصٍ كلها، فتحل بك عقوبات في الدنيا، مع العذاب في الآخرة، مع تعب البدن، وترك الشهوة واللذة، فتخسر الدنيا والآخرة.

ولكن زين طاعتك بالتقوى والإخلاص والورع، ونيتك بالصدق.

واحذر - إذا خطر ببالك أمر، أو دعتك نفسك إلى شيء، أو تحركت بحركة - فلا تعجل دون المعرفة والعلم.

وارفق بنفسك، ترسل ترسل[1] العالم، وسل

---

(١) الترسل: التؤدة والتمهل.

العلماء، وجالس الفقهاء العالمين بالله عز وجل، وبأمره ونهيه حتى يدلوك على الطريق، طريق الله، ويدلوك على دوائك.

ولا تغتر بطول القيام، وكثرة الصيام والنوافل الظاهرة، بلا معرفة منك بعملك.

فإذا كنت كذلك. ووزنت فعلك مع معرفتك بنفسك وبعدوك وبربك، صح فعلك إن شاء الله تعالى[1].

العجب بالأعمال

قال أبو عبد الله:

اتقوا الإعجاب، وحافظوا على أعمالكم أن تستكثروها لربكم عز وجل، فيمقتكم على ذلك.

واعلموا أن أعمالكم لا تقوم بشكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى عليكم، بل النعمة الواحدة تستوجب جميع أعمالكم كلها، وسائر النعم وافرة، وسيطالبكم بشكرها فما ظنكم؟

---

(١) شرح المعرفة ص(٢٣ ـ ٤١) مختصراً.

وبعد: فإن أعمالكم بالبر، نعمٌ من الله عليكم مجددة، فمتى تأتون بشكرها؟

ولئن شكرتم: إن شكركم لنعم مجددة عليكم، ولولا إلهامه إياكم الشكر، لما شكرتم، ولا توجهتم له أبداً.

وبعد: فلو عرفتم عظمة الله وكبرياءه وجلاله، والذي هو له أهل، لاستحييتم من ذكر أعمالكم.

ولو علمتم قدر أيادي الله تعالى ونعمه عليكم، لاستقللتم أعمال الخلائق لنعمة واحدة، ولأشفقتم من بقية النعم أن يطالبكم بشكرها.

فكيف تستكثرون أعمالكم المشوبة بالآفات؟!

وكيف يعجب بأعماله، من كانت الأعمال مننا من الله عليه، وعليه من المنن في الدين والدنيا أكثر من أن يحدَّ أو يحصى؟!

ألا فاستعينوا على نفي الإعجاب باحتقار أعمالكم، وتذكر أيادي الله لديكم، وبالعلم بتقصيركم فيما يجب لله عليكم. وبالوجل من زوال النعم عند تضييع الشكر[1].

---

(١) الوصايا ص(٦٩).

رعاية الجوارح والقلوب

قال أبو عبد الله:

إخواني: أعهد إليكم بخصلة، فيها جماع الخير كله، أوصيكم برعاية الجوارح والقلوب، والتشبث بذلك في الأحوال كلها. ولا تبدؤوا بفعل ولا قول، ولا تضمروا شيئاً إلا بنظر وتدبر:

- فإن كان محموداً عند الإله سبحانه وتعالى فبادروا فعله.

- وما كان مذموماً فجانبوه.

- وما خفي عليكم معرفته فكِلوه إلى العالم به، وقفوا عنه، حتى يأتي الله بعلمه وبيانه[١].

كيف تشكر النعم

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا شكر الناس ربهم بالألسن، وضيعوا حدود النعم، وفرطوا في آداب الشكر، فذلك مذموم.

فراقبوا الله، واستعملوا كل نعمة من النعم في

---

(١) الوصايا ص(٧٨).

الشكر على حالها، فإن الشكر واجب على العبد في كل نعمة.

اشكروا الله على ما أنعم عليكم من الألسن: بكثرة التلاوة والذكر.

فإن فرطتم في ذلك، فاستحيوا أن تخوضوا بالألسن في فنون الآثام كفعل من أرى.

ألا واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الأبصار، بالنظر إلى الحق والاعتبار.

فإن رغبتم عن ذلك، فراقبوا الله أن تنظروا بالأبصار إلى الحرام، فتغضبوا الله بنعمته، كفعل من أرى.

ألا واشكروه على ما أنعم به عليكم من السمع، بالاستماع إلى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة.

فإن ضيعتم ذلك، فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم إلى الهوى، والأخابيص، كفعل من أرى.

واشكروه على ما أنعم عليكم من الأيدي، ببسطها إلى الخيرات، فإن قصرتم في ذلك، فاستحيوا أن تبسطوها إلى الظلم والأذى، كفعل من أرى.

واشكروه على ما أنعم به من الأقدام بالسعي إلى الطاعات.

فإن قصرتم في ذلك، فراقبوا ألا تسعوا على الأقدام في الآثام، كفعل من أرى.

واشكروه على ما أنعم به من الأقوات: ألا تقوَوا بها على مكاره[1] الرزاق عز وجل.

ألا يا قوم، فلا تعصوا الله بنعمته.

واشكروه على ما أنعم به عليكم من اللباس، بأن تبلوه في رضى المنعم.

فإن قصرتم في ذلك، فاستحيوا أن تبلوا لباسكم في مكاره من ألبسكم، فلا تأمنوا أن يلبسكم سرابيل من قطران، وثياباً من مقطعات النيران.

واشكروه على ما أنعم به عليكم من الأموال، بأن تبذلوها في سبيل الوهاب.

فإن بخلتم عنه، فاستحيوا من الله أن تنفقوا مواهبه[2] في مكارهه، فتعصوا الله بنعمته، كفعل من أرى.

---

(١) مكاره الرزاق: أي ما يكرهه الله تعالى.

(٢) مواهبه: أي ما وهبه لكم وأعطاكم إياه.

واشكروه على ما أنعم به عليكم من الإيمان بالله، بأن تبذلوا المجهود في رضاه شكراً لتعظيم ما أنعم به عليكم.

فإن عجزتم عن المبالغة في رضوانه، فراقبوا الله أن تضيعوا حدود الإيمان.

واشكروه على ما أنعم به عليكم من العلم، فتحروا مسرات الله عز وجل، واعملوا بفضائل ما ندبكم إليه من محابه.

فإن عجزتم عن ذلك، فراقبوا الله أن تعدوا ما افترض عليكم. وبلغنا أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة: عالم لم ينفعه الله بعلمه.

واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل، بالتفكر والتدبر، وبأن تعظموا الله عز وجل، وتجلوه، وتستحيوا منه، وتهابوه، وتتقوه وتطيعوه على حسب ما عقلتم من عظمته وكبريائه، وعظيم قدره سبحانه وتعالى.

فإن عجزتم عن ذلك، فراقبوا الله تعالى أن تكونوا كالذين لا يعظمونه ولا يجلونه ولا يهابونه ولا يستحيون منه، ولا يتقونه، بل يستهينون بكثير من أمره.

فاتقوا الله يا قوم، أن تعودوا بعد المعرفة والفهم جهالاً، ويعود العقل والعلم عليكم وبالاً[1].

معالم التوكل

قال أبو عبد الله:

اعلم - يا أخي - أنك لا تكون متوكلًا على الله إلا بقطع كل مؤمَّل دون الله.

والمتوكل الصادق في توكله، لا يجد قلبه يخضع لمخلوق، لأن قلبه مملوء بالثقة بضمان الله عز وجل.

والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معطٍ، فهو غني بالله عمن سواه، فقير إلى الله، قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق في قلبه خطر. فمن وثق بغير الله لا يغنيه.

فإذا علمت أن الله حسب من توكل عليه، فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل؟![2].

محاسبة النفس

قال أبو عبد الله:

---

(١) الوصايا ص(١١٦).

(٢) آداب النفوس ص(١٩١).

اعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد، وسوء الظن، والحقد[1].

فاجعل المراجعة شغلاً لازماً، وكن وقّافاً كما قال الأول: المؤمن وقاف، وليس كحاطب ليل.

فقف وطالع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر، نافذة البصر:

فإذا رأيت أمراً محموداً، فاحمد الله، وامض.

وإذا رأيت مكروهاً، داركته بحسن المراجعة، واستقصيت فيه.

فإن الذي دخل بيتك[2] ولم يستأذنك سوف يختبئ فيه، وإن كان مظلماً: فأنت لا تشعر، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح، ويكون معك من العناية بأخذه والإنكار لما دخل فيه، ما لا صبر له عليه، ولا طاقة له به.

---

(١) أي إن الحسد وسوء الظن.. يدخل إلى نفسك بسرعة وخفية حتى لا تكاد تشعر به، ولذلك فهذه الخصال تسبقك فتصل إلى ضميرك قبل أن تأخذ الحيطة والحذر منها.

(٢) البيت هنا هو نفس الإنسان، والداخل: هو الخصال المذمومة.

ولو قد جرَّبْتَ لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول.

يدخل داخل منزلك بغير إذنك، وهو داخل لا يؤمن أن يخرِّبَ المدخول عليه:

فإن رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً، كان هو المقيم بالمنزل، المدبّر له، فاستولى على حرٍّ بيتك، وعلى حرمتك.

وإن رأى منك إنكاراً فيه، ضَعُفَ واختفى لك، ليمس سهوتك وغفلتك، فإذا وجد فرصة خرَّب عليك ما كنت أصلحت، وهدم ما بنيت.

فافهم إن كنت تفهم، واقبل النصح من الناصحين إن كنت تقبل.

فانظر: هل راجعت نفسك وأمرك؟

إنك لو فعلت، لوجدت فيه موضع مرمة ومصلحة[1]، أو وجدت مفسوداً بعينه[2]، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهباً إلى يوم القيامة[3].

---

(١) موضع مرمة ومصلحة: أي ما يحتاج إلى ترميم وإصلاح.
(٢) مفسوداً بعينه: أي أصابه الفساد والخلل.
(٣) آداب النفوس ص(٨١).

مكائد الشيطان في الطاعات

قال أبو عبدِ الله:

اعلموا أن الشيطان يحزن طويلاً عند الطاعات، وله مكائد، فهو لا يقصر في إبطالها.

ويوسوس في النفوس حب الثناء والإعجاب، والتجبر، ودعوى علو الدرجات، واتباع الهوى.

فمتى أنعم الله عليكم بأعمال البر، فتحرزوا من الشيطان.

وراقبوا الله أن تلتمسوا بالدين عرضاً من الدنيا، وتلتمسوا الثناء والتعظيم بأسباب الدين، فما أخلق ذلك أن يمحق أعمال العباد.

ومتى ابتليتم بالمدحة والتزكية، فلا تعجبوا بذلك، فإنه ضرار بالدين.

وإذا سبق السرور بالمدحة إلى القلب، فلا تصروا على ذلك، وردوا السرور بالعلم بضرر التزكية في الدين.

وردوا بالكراهية المدحةَ.

واستعيذوا من شر التزكية.

فما يؤمن أن تكونوا من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[1].

وسائل الاستقامة

قال أبو عبد الله:

احمِ القلب عن سوء الظن بحسن التأويل.

وادفَع الحسد بقصر الأمل.

وانفِ الكبر باستبطان العز.

واترك كل فعل يضطرك إلى اعتذار.

وجانب كل حال يرميك في التكلف.

وصن دينك بالاقتداء.

واحفظ أمانتك بطلب العلم.

وحصن عقلك بآداب أهل الحلم.

واستَعِدَّ الصبر لكل موطن.

والزم الخلوة بالذكر.

واصحب النعم بالشكر[2].

---

(١) الوصايا ص(٦٨).

(٢) رسالة المسترشدين ص(٨٩).

الحضور في الصلاة

قال أبو عبد الله:

لو كنت ممن يتفقد أمره، لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة. حيث فارقَتْكَ المراجعةُ في صلاة الفريضة:

فلم تدرِ ماذا قرأ إمامُكَ؟

ولم تدرِ أفي فرض كنت أم في نافلة!!

في صلاة كنت أم في غيرها!

وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه.

قد أصغيت بأذنيك إلى إمامك، وتخشعت بوقوفك، وفرَّغْتَ قلبك لاستماع ما يقرأ إمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك، التي ليس شيء أوجب عليك منها.

فرجعت منها ـ وقد ظهر منك ما وصفنا ـ وأنت كمن لم يشهدها، لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها.

فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة، على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك تيقظك.

وتيقظك: مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك،

والمصير إليه بالفعل، وما سوى ذلك غفلة وسهو[1].

كيف يحدث الانزلاق

قال أبو عبد الله:

إن العبد إنما يؤتى من قبل التهاون باليسير. وهو الذي يوقع في الإثم الكبير.

والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير.

فيكون أوله: كان تحفظاً.

ثم صار انبساطاً.

ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير.

ثم صار من اليسير إلى ما هو أكثر منه.

فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك.

ففي ترك اليسير، ترك اليسير والكثير[2].

---

(١) آداب النفوس ص(٨٣).

(٢) آداب النفوس ص(٨٦).

الأخذ باليسر

قال أبو عبد الله:

ما أتاكم عن الله عز وجل، والرسول ﷺ من رخص الله فخذوه.

فإنه بلغنا أن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه[١].

فارغبوا فيما أبيح لكم من كل سهل يسير، فقد بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يرغب كثيراً في السهل اليسير من الأمور[٢].

فلا تعدلوا عن العافية في الأمور كلها، ولا تتعرضوا للبلوى فلسنا من أهلها[٣].

---

(١) أخرجه في مجمع الزوائد مرفوعاً: (إن الله تبارك وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه) [٤٩٤٠]. وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار، ورجال البزار ثقات وكذلك رجال الطبراني.

(٢) جاء في الحديث المتفق عليه: (ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً). البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٣) الوصايا ص(٦٦).

لنهدينهم سبلنا

قال أبو عبد الله:

العلم يورث المخافة.

والزهد يورث الراحة.

والمعرفة تورث الإنابة.

وخيار هذه الأمة: الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم.

ومن صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة.

ومن اجتهد في باطنه، ورثه الله حسن معاملة ظاهره.

ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه، ورثه الله الهداية إليه، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1][2].

مما يعين على فعل الخير

قال أبو عبد الله:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٩).

(٢) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٧).

اعلم ـ رحمك الله ـ أنه ليس يصفو لك عمل إلا بتصفية الغذاء، مع نفي الآفات عن جوارحك وقلبك.

وأعون الأشياء لك على قيام الليل: خفة الطعام، مع قلة شرب الماء.

وأعون الأشياء لك على ترك الشهوات وإماتتها من قلبك: التفكر في وعيد الله، وما أعد الله تعالى من عقابه لأهل معصيته، والنظر في صنع الخالق.

وأعون الأشياء لك على الصمت: العزلة عن الخوض فيما خاض الناس فيه.

وأعون الأشياء لك على التفكر: الخلوة.

ومتى أردت أن تكون حليماً، ذكرت الله عز وجل.

وإذا أردت أن تكون فقيهاً، أخذت بما تعلم.

وإذا أردت أن تكون زاهداً، أخذت باختيار الله تعالى لك.

وإذا أردت أن تكون عالماً، فاعرض نفسك على أخلاق القرآن، فالقرآن أربع آيات: فآية تأمرك، وآية تنهاك، وآية تشوقك، وآية تخوفك. فإن عدلت عن

القرآن، عدلت عن الشفاء، وإن لزمت القرآن، هبطت على رياض الجنة[1].

الطاعة بغير خوف

قال أبو عبد الله:

اعلم - يا أخي - أنه من أطاع الله ولم يَخَفْهُ، فقد أطاعه في العمل، وعصاه في ترك الخوف.

فكيف بمن يعصيه ولا يخافه؟![2].

من لم يرد الله بعمله

قال أبو عبد الله:

لو أنك لم تأخذ من الدنيا إلا قوتك، غير أنك لم ترد الله به، قطع بك.

ولو تركت قوتك من الدنيا، ولم ترد الله به، قطع بك[3].

---

(١) شرح المعرفة ص(٧٨).

(٢) آداب النفوس ص(١٧٥).

(٣) آداب النفوس ص(١٧٥).

أثر العلماء في الأمة

قال أبو عبد الله:

اعلموا أن صلاح الأمة وفسادها، بصلاح العلماء وفسادهم.

وإن من العلماء رحمة على الناس، يسعد من اقتدى بهم.

وإن من العلماء فتنة على الأمة، يهلك من تأسى بهم.

فالعالم إذا كان عاملاً برضوان الله، مؤثراً للآخرة على الدنيا، فأولئك خلفاء الرسل عليهم السلام، والنصحاء للعباد، والدعاة إلى الله تعالى.

وأولئك رفقاء الأنبياء على منابر من نور، في الحلي والحلل، يُكرمون ويحبرون، وفي الأقارب والأباعد يشفعون، إذ الخلائق ببعثهم مشغولون.

أولئك رحمة الله على الأمة، وبركته عليهم، يدعون إلى سبيل النجاة، فسعد من أجابهم، وفاز من اقتدى بهم، ولهم مثل أجر المتأسين بهم.

ألا إن صنفا من العلماء، رضوا بالدنيا عوضاً عن

الآخرة، فآثروها على جوار الله تعالى، ورغبوا في الاستكثار منها، وأحبوا العلو فيها. فتأسى بهم عَالَمٌ من الناس، وافتتن بهم خلق كثير، أولئك أسوأ فتنة على الأمة.

تركوا النصح للناس كيلا يفتضحوا عندهم، وشروا بالعلم ثمناً قليلاً، فاحتملوا أوزارهم مع أوزار المتأسين بهم، فهلكوا وأهلكوا، أولئك خلفاء الشيطان، ودعاة إبليس، أقل الله في البرية مثلهم[1].

علامة الصدق

سئل الحارث المحاسبي عن علامة الصدق، فقال:

الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق، من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين[2].

---

(١) الوصايا ص(٣٦ ـ ٣٧).

(٢) الرسالة القشيرية ص(٢١٣).

من عظيم النعم

قال أبو عبد الله:

لو عقلت عن الله أمرين: لنظرت إليه بعظيم الشكر له:

حيث لم يجعل دعاءه إلى الجنة في ترك ما تحتاج إليه من الدنيا.

ولم يجعل دعاءه إلى النار في حاجتك منها[1].

العمل بالحق

قال أبو عبد الله:

كن بالحق عاملاً، يزدك الله نوراً وبصيرة. ولا تكن ممن يأمر به وينأى عنه، فيبوء بإثمه، ويتعرض لمقت ربه، قال الله عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[2][3].

---

(١) آداب النفوس ص(١٧٥).

(٢) سورة الصف، الآية (٣).

(٣) رسالة المسترشدين ص(٥٨).

احذر البدعة

قال أبو عبد الله:

لا تدخلنَّ في شيء مما أحدث الناس من العبادة وغيرها، فإن الأمر ليس إلا الأمر الأول، واتق الله تعالى، وعليك بالعتيق[1]، واحذر ـ جهدك ـ ما ابتدع الناس[2].

تابع لا قائد

قال أبو عبد الله:

اجعل نفسك تابعاً في طريق الهدى، ولا تجعلها قائداً إلى طريق الهوى، واحذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى[3].

معلومات أولية

قال أبو عبد الله:

---

(١) العتيق: هو القديم، والمراد به هنا الأصل، وهو الكتاب والسنة.
(٢) شرح المعرفة ص(٨٧).
(٣) آداب النفوس ص(١٧٦).

تعلَّم أنك عبد مربوب، لا نجاة لك إلا بتقوى سيدك ومولاك عز وجل، ولا هلكة عليك بعدها.

فتذكر وتفكر لأي شيء خلقت؟

ولم وضعت في هذه الدار الفانية؟

فتعلم أنك لم تخلق عبثاً، ولم تترك سدى، وإنما خلقت ووضعت في هذا الدار للبلوى والاختبار: لتطيع الله عز وجل أو تعصي، فتنقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد[١].

حقوق الله تعالى

قال أبو عبد الله:

لا بد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله عز وجل بأسبابها، وأوقاتها، وعللها، وإراداتها، ووجوبها، وفيم هي؟

وأيها بدأ الله عز وجل به خلقه؟

وأيها أوجب أن يبدأ به الأول فالأول، لا يقدم ما أخر الله، ولا يؤخر ما قدم الله منها.

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٤٤).

كما قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته: «واعلم أن لله عز وجل حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار»[1].

فأما أوقاتها: فكالحج في وقته، وكالصلوات في أوقاتها.

وأما أسبابها: فكوجود السبيل إلى الحج...

وأما إرادتها: فإخلاص النية لله عز وجل بالقيام بها.

وأما ما أوجبها أولاً فأولاً، فإنما يستدل على ذلك بالكتاب والسنة.

وأما فيما هي: ففي أعمال القلوب والجوارح.

فعلى العبد: أن يبدأ بما بدأ الله به، فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه، فإنه أول عامل منه، وعنه تكون أعمال الجوارح، فيوقفه حيث أوقفه الله عز وجل من الرعاية لحقوقه.

فيوقفه على جمل رعاية حقوق الله عز وجل في عقود ضميره، حتى يقوم بها لله عز وجل كما أمره وتعبده، وهي ثلاث خلال:

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (١/ ٦٠).

اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر.

واعتقاد السنة ومجانبة البدعة.

واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على كل ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن.

وجمل حقوق الله عز وجل في الجوارح: القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى، وترك الحركات ـ وهو السكون ـ عما كره الله عز وجل.

ثم رعاية حقوق الله عز وجل عند خطرات القلوب الداعية إلى كل خير وشر[1].

خصال مجربة

قال أبو عبد الله:

هذه خصال مجربة. قد جربها أهل المحاسبة لأنفسهم، وذوو العزم، فلما أن قاموا بها، وأحكموها ـ بإذن الله تعالى ـ وصلوا إلى المنازل الشريفة.

فأول هذه الخصال: ألا تحلف بالله صادقاً ولا كاذباً، ولا عامداً ولا ساهياً، فإنك إن أحكمت ذلك

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٩٠).

من نفسك، وعودته لسانك، دفعك ذلك إلى أن تترك الحلف صادقاً وكاذباً، ساهياً وغير ساهٍ.

والخصلة الثانية: إياك والكذب في هزل أو جد، فإنك إن فعلت ذلك، وأحكمته من نفسك وعودته لسانك، شرح الله تعالى صدرك، وصفا به عملك حتى كأنك لا تعرف الكذب، وإذا سمعته من غيرك عبت ذلك عليه، وغيرته ولك ثوابه.

والخصلة الثالثة: احذر أن تَعِدَ أحداً شيئاً، فتخلفه إياه وأنت تقدر عليه، وإن وعدته فلا تخلفه إلا من عذر بيِّن، واقطع العدة البتة، فإنه أقوى لأمرك وأقصد لطريقك، فإن خُلْفَكَ إياه ضرب من الكذب.

والخصلة الرابعة: إياك أن تلعن شيئاً من الخلق، أو تؤذي ذرة فما فوقها، فإنها أخلاق الأبرار والصادقين.

والخصلة الخامسة: إياك أن تدعو على أحد من الخلق، وإن ظلمك فلا تقطعه بإساءته، واحتمل ذلك لله تعالى، ولا تكافيه بقول ولا بفعل.

والخصلة السادسة: إياك أن تقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشركٍ ولا بكفرٍ ولا نفاق، فإنه

أقرب إلى الرحمة، وهي تمام السنَّة، وأبعد من الدخول في علم الله عز وجل، وأبعد من مقت الله تعالى، وأقرب إلى رضى الله تعالى ورحمته.

والخصلة السابعة: إياك والنظر والغمز والهمز إلى شيء من معاصي الله تعالى، في ظاهر ولا باطن، وكفَّ عنها جوارحك، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح، في عاجل الدنيا، مع ما يدخره الله تعالى لك من خير في الآخرة.

والخصلة الثامنة: إياك أن تجعل على أحد منك مؤونة، صغيرة ولا كبيرة، وارفع مؤونتك عن الخلق أجمعين، مما احتجت إليه، أو استغنيت عنه، فإنه تمام عز العابدين، وشرف المتقين.

ولا ترفع أحداً بهواك، ولا تضع أحداً بهواك، وليكن الناس عندك في الحق سواء.

والخصلة التاسعة: اقطع طمعك من الآدميين، ولا تطمع نفسك في شيء مما في أيديهم، فإنه العز الأكبر، والغنى الحاضر، والملك العظيم، والتوكل الصحيح.

والخصلة العاشرة: ألا تلقى أحداً من الناس، إلا

ورأيت له الفضل عليك، وعسى أن يكون عند الله تعالى خيراً منك وأرفع درجة.

- إن كان صغيراً قلت: هذا لم يعص الله تعالى: وأنا قد عصيته، فلا أشك أنه خير مني.

- وإن كان كبيراً قلت: هذا عبدَ اللَّه تعالى قبلي.

- وإن كان عالماً قلت: أعطي ما لم أعط، ونال ما لم أنل، وعلم ما جهلت، وهو يعمل بعلم.

وإن كان جاهلاً قلت: هذا قد عصى الله بجهل، وأنا عصيته بعلم، وما أدري بما يختم لي، وبما يختم له[1].

العلماء وحظوظ الأنفس

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم، وفي ذلك يزدري بعضهم على بعض، وقلوبهم متنافرة، والنفوس متباينة، فأسروا أموركم، وكونوا للشهرة والجدال مبغضين.

---

(١) شرح المعرفة ص(٥٧).

إني أوصيكم: متى أظهرتم من العلم شيئاً فأريدوا به وجه الله، وتذاكروا منه بقدر الحاجة إلى بيانه للمريدين، خشية الخروج إلى كتمانه.

فقد كانت المسألة تقع على عهد السلف رضي الله عنهم، فيودّ كل امرئ منهم أن أخاه كفاه الجواب، وكان الرجل منهم يعلم الكثير، ويفقه الفقه الكثير، وما يعلم به جاره.

فإن أظهر أحدكم أمره، وأبدى علمه، فنسب إلى الجهل والخطأ، لم يؤمن عليه الأنفة والامتعاض والحقد.

وإن استحسنوا قوله، لم تؤمن عليه الفتنة والتزين والإعجاب.

وإن قال بغير علم، لم يؤمن عليه الجرح.

وإن تكلف القول، لم يؤمن عليه الأنفة أن ينسب إلى الجهل، فإن الله عز وجل لا يحب المتكلفين.

وبعد: فأنّى لك بالسلامة، مع الصمت وخمول الذكر!

فكيف إذا نصبت نفسك عالماً يشار إليه، وتطاع، ويغدى ويراح إليك، ويقبل قولك. ويصدر عن رأيك، ويرضى لرضاك، ويغضب لغضبك.

فيا لها فتنة ما أعظمها على العبد، إلا من عصمه الله[1].

التفكير في المعاد

قال أبو عبد الله:

تعاهد - يا أخي - قلبك عند همه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك[2].

وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلها فيه من مهج نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاقِ مروءاتهم، وانتقاص أديانهم.

ثم تركوا ذلك كله، وقدموا على الله فرادى آحاد، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم: من قول أو فعل، من مثاقيل الذر، وموازين الخردل.

والسؤال عن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها.

---

(١) الوصايا ص(١٢٠).

(٢) أي لا يفارقك التفكير في أمر المعاد.

فإنك - يا أخي - إن شغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سيكلُّ منك لسانك[1]، ولا يعدمك الخوف اللازم، مع الحزن الدائم، والشغل المحيط بقلبك[2].

أصول

قال أبو عبد الله:

أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس.

وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد.

وأصل معرفة الوعد وعيد عظم الجزاء.

وأصل ذلك: الفكرة والعبرة.

وأصدق بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت.

---

(١) يعني أن الإنسان إذا اشتغل بمحاسبة نفسه، والتفكير في المعاد، فلن يكون عنده وقت للكلام الضائع، ولذلك سيسكن لسانه.

(٢) آداب النفوس ص(٤٩).

ما حملت من ناقة فوق رحلها

أعف وأوفى ذمة من محمد[1]

قوى النفس

قال أبو عبد الله:

اعلم بأنك لست بشيء إلا بالله، وليس لك شيء إلا ما نلت من رضوان الله، وأنك إن اتقيته في حقه وقاك شر من دونه.

ولا يصلح عبد إلا أصلح الله بصلاحه سواه، ولا يفسد عبد إلا أفسد الله بفساده غيره.

فأعداؤك من نفسك: طبائعك السيئة.

وأولياؤك من نفسك: طبائعك الحسنة.

فقاتل ما فيك من ذلك ببعض.

وقاتل أعداءك بأوليائك، وغضبك بحلمك، وغفلتك بتفكرك، وسهوك بتنبهك.

فإنك قد منيت وابتليت في معاني طبائعك، ومكابدة هواك[2].

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٣).

(٢) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٣).

رأس مال وربح

قال أبو عبد الله:

يا أخي، فلتكن التقوى من بالك، فإنها رأس مالك، والنوافل بعد ذلك ربحك.

وليس بتاجر عاقل ولا حصيف لبيب، من يعدّ له ربحاً، دون أن يكمل رأس ماله[1].

مراتب الزهد

سئل الحارث المحاسبي عن تفاوت الناس في الزهد. فقال:

على قدر صحة العقول، وطهارة القلوب.

فأفضلهم أعقلهم، وأعقلهم أفهمهم عن الله، وأفهمهم عن الله أحسنهم قبولاً عن الله، وأحسنهم قبولاً عن الله أسرعهم إلى ما دعا الله عز وجل، وأسرعهم إلى ما دعا الله عز وجل أزهدهم في الدنيا، وأزهدهم في الدنيا، أرغبهم في الآخرة.

فبهذا تفاوتوا في العقول.

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٤٣).

فكل زاهد زهده على قدر معرفته.

ومعرفته على قدر عقله.

وعقله على قدر قوة إيمانه[1].

مخدوعون عن التقوى

قال أبو عبد الله:

التقوى أول منزلة العابدين.

وبها يدركون أعلاها، وبها تزكو أعمالهم، لأن الله عز وجل لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه.

فوالله ما رضي كثير من المتقين بها لله تعالى وحدها، حتى أعطوه المجهود من القلوب والأبدان، وبذلوا له المهج من الدماء والأموال.

فانظر - رحمك الله - أين أنت منهم؟

ولقد خشيت أن يكون عامة أهل زماننا من العابدين مخدوعين مغترين.

فكم من متقشف في لباسه، متذلل في نفسه، آخذ من حطام الدنيا اليسير.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٦).

ومن مصلٍ وصائم، وغازٍ وحاج، وباكٍ وداع.

ومظهر للزهادة في الدنيا، والرفض لها على غير صدق من الضمير لرب العالمين عز وجل:

يتصنع للعباد بما يظهر من الطاعات، ويرى أنه من المخلصين، وجوارحه مع ذلك عليه منتشرة: من عين ينظر بها إلى ما كره الله، ولسان يتكلم به بما لا يحب الله، عند غضبه وعند أنسه بالناس، ومحادثته بالغيبة وغيرها(١).

مواطن الهلكة

قال أبو عبد الله:

من عدم الفهم عن الله فيما وعظ، لم يحسن أن يستجلب وعظ حليم.

ومن خرج من سلطان الخوف إلى عزة الأمن، اتسعت به الخطا إلى مواطن الهلكة، فكشفت عنه ستر العدالة، وفضحته شواهد العزة، فلا يرى جميلاً يرغب فيه، ولا قبيحاً يأنف عنه.

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٤١).

فتبسط نفسه إلى ري الشهوات، ولا تميل إلى لذيذ الراحات، فيستولي عليه الهوى، فينقص قدره عند سيده، ويشين إيمانه، ويضعف يقينه[1].

الزهد في الدنيا

سئل الحارث المحاسبي عن الزهد في الدنيا؟ فقال:

هو ـ عندي ـ العزوف عن الدنيا ولذاذتها وشهواتها، فتنصرف النفس، ويتعزز الهم.

وانصراف النفس: ميلها إلى ما دعا الله إليه بنسيان ما وقع به من طباعها.

واعتزاز الهم: الانقطاع إلى خدمة المولى، يضنُّ بنفسه عن خدمة الدنيا مستحياً من الله أن يراه خادماً لغيره، فانقطع إلى خدمة سيده، وتعزز بملك ربه، فترحل الدنيا عن قلبه، ويعلم أن في خدمة الله شغلاً عن خدمة غيره.

فيلبسه الله رداء عمله، ويعتقه من عبوديتها.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٦).

واعتز أن يكون خادماً للدنيا، لعزة العزيز الذي أعزه بالاعتزاز عنها.

فصار غنياً من غير مال، وعزيزاً من غير عشيرة، ودرَّت ينابيع الحكمة من قلبه، ونفذت بصيرته، وسمت همته، ووصل الوهم[1] إلى منتهى أمنيته، فترقى وارتفع، ووصل إلى روح الفرج من هموم الأطماع، وعذاب الحرص[2].

لِمَ؟ ولمْ

قال أبو عبد الله:

من صحح خصلتين فقد استحكم أموره كلها:

من صحح «لِمَ؟»[3] و«لَمْ»[4] يقول: لِمَ لَمْ أعمل؟ ولِمَ عملت؟ ولِمَ لا أعمل؟

---

(١) لعل المراد بالوهم هنا التوهم، وهو تخيل القيامة وأهوالها.. حتى أصبحت الآخرة تملأ عليه كل تفكيره..

(٢) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٦).

(٣) لَمَ: التي يستفهم بها.

(٤) لمْ: النافية. المراد محاسبة النفس قبل العمل، وبعد العمل، وعلى ترك العمل.

ومن ضيع أو جهل فعلى حسب ذلك[1].

دلالة العيوب

قال أبو عبد الله:

معرفتك بعيبك وعيب غيرك سواء، فمن لم يعرف عيب غيره يعرف عيب نفسه.

فإذا ظهر لك من عيوب الناس ما خفي عليك من عيبك، استدللت بعيوب الناس على عيبك.

وإذا ظهر لك من عيبك ما خفي عليك مثله من عيوب غيرك، فلا توقع ذلك بغيرك، حتى يظهر لك منه مثل ما ظهر لك من نفسك، وتجسس عليها[2]، وفاتشها، وواقفها، وحاسبها، وخذها بأداء ما عليها أشد الأخذ، ولا تطلبن ذلك من غيرها.

فإذا ظهر لك من غيرها شيء، فأمكن طلب العذر له فاطلبه، وأما نفسك فلا تطلبنَّ لها عذراً، وإن اعتذرت فلا تقبلن منها[3].

---

(١) آداب النفوس ص(١١٩).

(٢) أي على نفسك.

(٣) آداب النفوس ص(١٢٠). والخلاصة: اتهام النفس والتماس العذر للآخرين.

أبواب الضعف

قال أبو عبد الله:

إنما يؤتى الناس من ثلاثة أشياء: من الغفلة، والغلبة، والجهالة.

ورُبَّ رجل تجتمع فيه الثلاث خصال، وإن قلت: إني لا أعلم من أبرئه منها لكنت صادقاً[1].

خطر اللسان

قال أبو عبد الله:

خفْ ـ يا أخي ـ من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري، القريب المتمكن من أخذك، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة، وقتيل اللسان عقوبته النار، إلا أن يعفو الله.

فإياك والغفلة عن اللسان، فإنه سبع ضار، وأول فريسته صاحبه.

فأغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق، ثم لا تفتحه إلا فيما لا بدَّ لك منه، فإذا فتحته فاحذر، وخذ

---

(١) آداب النفوس ص(١١٨).

من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها، وأغلق الباب.

وإياك والغفلة عن ذلك والتمادي في الحديث... فتهلك نفسك، فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ:

(وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)[1].

فإياك والغفلة عنه، فإنه أعظم جوارحك عليك جناية، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه عليك لسانك، وأكثر ما تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك[2].

السبق لمن عمل

قال أبو عبد الله:

اصدق في الطلب ترثْ علم البصائر، وتبدُ لك عيون المعارف، وتميَّزْ بنفسك علمَ ما يرد عليك بخالص التوفيق.

فإنما السبقُ لمن عمل.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٢) آداب النفوس ص(٤٣).

والخشية لمن علم.

والتوكل لمن وثق.

والخوف لمن أيقن.

والمزيد لمن شكر[١].

علامات

قال أبو عبد الله:

علامة حب الله: حب جميع ما أحب الله.

وعلامة الخوف من الله: ترك جميع ما كره الله.

وعلامة الحياء من الله: ألا تنسى الورود على الله، وأن تكون مراقباً له في جميع أمورك، على قدر قرب الله تعالى منك، واطلاعه عليك.

ومن علامة حسن الظن بالله: شدة الاجتهاد في طاعة الله.

وعلامة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئاً.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٩٣).

ومن علامة الرضا عن الله: الرضا بقضاء الله، وهو سكون القلب إلى أحكام الله، والتفويض إلى الله قبل الرضا، والرضا بعد التفويض.

ومن علامة صدق الرجاء: شدة الطلب، والجد والاجتهاد ليدرك ما رجا.

ومن علامة معرفة النفس: سوء الظن بها.

ومن علامة الشكر: معرفة النعمة بالقلب أنها من الله، لا من غيره، والحمد عليها باللسان، وألا يستعان بها على شيء مما يكره المنعم.

ومن علامة العقل: حسن التدبير ووضع الأشياء مواضعها، من القول والفعل.

ومن علامة حسن الخلق: احتمال الأذى في ذات الله، وكظم الغيظ، والمغفرة والتجافي عن الزلة.

ومن علامة سوء الخلق: كثرة الخلاف، وقلة الاحتمال.

ومن علامة الألفة: قلة الخلاف، وبذل المعروف[1].

---

(١) آداب النفوس ص(١٥٠).

نفي الآفات عن القلب

قال أبو عبد الله:

اعلم - رحمك الله تعالى - أنه لا غنى بك عن الأدب، ولم يعمل العاملون شيئاً أفضل من اجتناب المحارم.

فألزم قلبك المحاسبة، مع نفي الآفات عن قلبك، فلأن تنفي آفة واحدة في ظاهرك وباطنك أفضل من عبادة كبيرة، مع الجهل بتلك الآفة[1].

معلومات الغيب تثبت بالسنة

قال أبو عبد الله:

اعلم - رحمك الله - أنه ليس مما يحل بقلب العبد من عمل الطاعات علم لما مضى، أو بقي[2]، أو تقديم صفة شيء من الغيب بعد أن يصفه العبد، أو يقول إنه رأى شيئاً من ذلك، إلا بالصفة على سمع في الخبر[3].

---

(١) شرح المعرفة ص(٨٥).

(٢) أي إن العبادات مهما بلغت لا تجعل صاحبها يعلم الغيب.

(٣) أي لا يكون علم الغيب إلا عن طريق الأخبار والأحاديث عنه صلَّى الله عليه وسلم.

فمن ادعى أنه رأى شيئاً من أهوال يوم القيامة، أو شيئاً من أمر رب العالمين، أو رأى العرش أو الكرسي، أو رأى الله عز وجل، فقد كذب وذهبت به المذاهب، ولا يأمن أن يعظم ذلك في قلبه حتى يرسخ فيصير صاحب بدعة، يدعو الناس إليها.

ومن زعم أنه يعرج به، أو يكلم الرب تعالى، أو يذهب إلى مكة في ليلة، أو ادعى شيئاً من أعلام النبوة، فهذا رجل كذاب، ضال مضل.

ومن زعم أنه يرى النور أو الملائكة أو الحور، فهو كذاب.

فاتق هذا الباب.

وإنما نور الله: العلم والقرآن.

والمعرفة تميز بين الحق والباطل.

فاحذر هذا الباب ـ رحمك الله تعالى ـ واحذر أهله، ومن يدعو إلى هذا الأمر، والزم الأمر الأول، ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والتابعون. ومن تبعهم، ممن ثبتت عنهم الروايات[1].

---

(١) شرح المعرفة ص(٨٦).

يثمر العلم في أرض التقوى

قال أبو عبد الله:

اعلم: أنه كما لا يغني ضوء النهار الأعمى، كذلك لا يضيء بنور العلم إلا أهل التقى.

وكما أن الميت لا ينفعه الدواء، كذلك لا يفيد الأدب في أهل الدعوى.

وكما لا ينبت الوابل الصفا[1]، كذلك لا تثمر الحكمة بقلب محب الدنيا.

ومن ألف هواه قلَّ أدبه، ومن خالف دلالة علمه كثر جهله، ومن لم ينفعه دواؤه، كيف يداوي غيره؟[2].

معالجة الأصول

قال أبو عبد الله:

تعرَّف الصدق، وتعرَّف ضده من الكذب.

---

(١) الوابل: المطر الشديد، والصفا: الحجر الصلد الذي لا ينبت.

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٦٠).

وتعرف الخير، وتعرف ضده من الشر.

فاعمل في إثبات الصدق، ونفي ضده.

وتعلم الأصل من الفرع، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل، وانتفاء ضده من وجه الأصل.

فإن الأصل يأتي على الفروع.

وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل، فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتاً، كلما ذهب فرع أخلف فرعاً آخر بدله[1].

فحب العز أصل، ومنه مخرج: حب الرئاسة

---

(١) هذه قاعدة عظيمة في التربية، وهي التعامل مع الأصول والكليات، وعدم تضييع الوقت في الجزئيات والفروع، فإذا أمكن إصلاح الأصل صلحت الفروع، وإذا أمكن القضاء على الأصل الفاسد، قضى على الفروع، ولكنه لو قضى على فرع فاسد وأصله موجود، فسوف يخلف فرعاً آخر.

وقد مثل المحاسبي ـ رحمه الله ـ بأصل العز، وبين فروعه الكثيرة، فإصلاح فرع من هذه الفروع لا يصلح الأصل، ولكن معالجة الأصل وإصلاحه، ينتج عنه تلقائياً صلاح الفروع.

والجاه عند الناس، ومنه الكبر والفخر، ومنه الغضب والحسد، ومنه الحقد والحمية والعصبية.

والنفس عاشقة له، وهو قرة عينها، وهو أحب إليها من أمٍّ واحدٍ لولدها.

فمن عالج نفي العز من نفسه، ووفقه الله لذلك، سهل عليه المسير في طريقة محبة الله عز وجل، ومحجة الإيمان وسبيل الاستقامة، وهان عليه معالجة الصدق في عمله.

لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز.

ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز.

ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز.

ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز.

ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز[١].

المحبون

قال أبو عبد الله:

إن أول المحبة الطاعة.

---

(١) آداب النفوس ص(١٠٣ ـ ١٠٥).

وهي منتزعة من حب السيد عز وجل، إذ كان هو المبتدئ بها[1]، وذلك أنه عرفهم نفسه، ودلهم على طاعته، وتحبب إليهم، على غناء عنهم.

فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه، ثم ألبسهم النور الساطع في ألفاظهم من شدة نور محبته في قلوبهم.

فلما فعل ذلك بهم، عرضهم - سروراً بهم - على ملائكته، حتى أحبهم الذين ارتضاهم لسكنى أطباق سماواته.

نشر لهم الذكر الرفيع عند خليقته، قبل أن يخلقهم مدحهم، وقبل أن يحمدوه شكرهم، لعلمه السابق فيهم: أنه يبلغهم ما كتب لهم، وأخبر به عنهم.

ثم أخرجهم إلى خليقته وقد استأثر بقلوبهم عليهم[2].

أين تطلب الأشياء؟

قال أبو عبد الله:

---

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [سورة المائدة، الآية (٥٤)].

(٢) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٣).

اطلب الأدب في بساتين العلم.

والأنس في مواطن الخلوة.

والحياء في شِعاب النفس.

والاعتبار في أودية التفكر.

والحكمة في رياض الخوف.

واعرف دوام إحسان الله إليك مع مخالفتك لأمره، وحلمه عنك مع إعراضك عن ذكره، وستره عليك مع قلة حيائك منه، وغناه عنك مع فقرك إليه.

أين عالم بربه؟!

أين خائف من ذنبه؟!

أين مسرور بقربه؟!

أين مشغول بذكره؟!

أين مشفق من بُعْدِه؟! هو ذا مغفور له يا مغرور[1].

وجوه التواضع

قال أبو عبد الله:

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٥٤).

عليك بالتواضع فالزمه، واعلم أن لك من العون عليه: أن تذكر الذي أنت فيه، والذي تعود إليه.

والتواضع له وجوه:

فأشرفها وأفضلها: أن لا ترى لك على أحد فضلًا، وكل من رأيت كن له بالضمير والقلب مفضلًا، ومن رأيت من أهل الخير رجوت بركته، والتمست دعوته، وظننت أنه إنما يُدفَع عنك به، فهذا التواضع الأكبر.

والتواضع الذي يليه: أن يكون العبد متواضعاً بقلبه، متحبباً إلى من عرفه، غير محتقر لمن خالفه.

وأما التواضع الثالث: فهو اللازم للعباد، الواجب عليهم، الذي لو تركوه كفروا، فالسجود لله تعالى[١].

ميراث الذنوب

قال أبو عبد الله:

اعلم ـ يا أخي ـ أن الذنوب تورث الغفلة.

والغفلة تورث القسوة.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٧).

والقسوة تورث البعد من الله.

والبعد من الله يورث النار.

وإنما يتفكر في هذه: الأحياء، وأما الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا[1].

حتى تكون من الناصحين

قال أبو عبد الله:

اقطع لسانك عن الذكر للخلق أجمعين، ولا يتم لك عمل إلا به.

وأخرج الغل والبغي والكبر من قلبك في جميع أحوالك.

وليكن لسانك في السر والعلانية واحداً، ومشيك في السر والعلانية واحداً، والخلق عندك في النصيحة واحداً.

ولا تكن من الناصحين وأنت تذكر أحداً من خلق الله تعالى بسوء، أو تعيره بفعل، أو تحب أن يذكر عندك بسوء، أو يرتاح قلبك إذا ذكر عندك بسوء.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٥٤).

وهذه آفة العابدين، وعطب النساك، وهلاك الزاهدين، إلا من عصمه الله تعالى، وأعانه على حفظ قلبه ولسانه[1].

من أراد الزهد

قال أبو عبد الله:

من أراد الزهد:

فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلاً.

وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً.

وليكن العظيم منهم إليه من الأذى صغيراً.

وليكن الصغير منه إليهم عنده عظيماً[2].

بين الرضى والصبر

قال أبو عبد الله:

ليس للعبد أن يرد على مولاه من أحكامه شيئاً. وعليه أن يرضى بما ورد عليه من حكم مولاه.

---

(١) شرح المعرفة ص(٦٥).

(٢) آداب النفوس ص(٥٥).

فإن لم يرض صبر.

فللعبد حالان:

حال يوافق منه رضىً على ما يحب.

وحال يوافق منه صبراً على ما يكره[1].

خير القول

قال أبو عبد الله:

اعلموا أن الكلام كثير، وفنون العلم غير محدودة،

وخير القول ما ابتغي به وجهُ الله تعالى.

وأفضل العلم ما عمل به لوجه الله تعالى[2].

السلامة من النظر إلى عيوب الناس

قال أبو عبد الله:

قلت[3]: أرى من الناس أشياء يعاب مثلها،

---

(١) آداب النفوس ص(٥٦).

(٢) الوصايا ص(٨٢).

(٣) كثيراً ما يلجأ المحاسبي ـ رحمه الله ـ إلى أسلوب الحوار في المسألة التي يريد طرحها.

وأحب أن أسلم من التعيير والازدراء والعيب، فلا أدري أسلمتْ منه نفسي أم لا؟[1].

فقال: إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبله، وعند معرفة عيب غيره جِهْبِذ[2].

فيحتقر عيب أهل كل صناعة، وأهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة.

ويحتقر عيب من هو في مثل مرتبته، ويستعظم ذلك من كل من رآه منه، فإذا أتى على عيب نفسه جازه[3] إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره.

وهو يطلب العذر لنفسه، ولا يطلبه لغيره.

فهو في طلب عذرها جهبذ، وفي طلب عذر غيرها أبله، وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب.

---

(١) السائل هنا يسأل عن طريق السلامة إذا رأى عيباً من إنسان، فهو يحب أن يكون سليم القلب تجاه هذا الذي رآه على العيب.

(٢) الجهبذ: النقاد الخبير.

(٣) جازه: أي تركه وانتقل إلى غيره.

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك، فاجعل نفسك مكانه، ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به - لو رأى منك مثل الذي رأيت منه - وأضمر ذلك له في نفسك، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه.

وهكذا إذا رأيت ما يستحسن، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له.

ولا شك أن يكون أخفَّ الناس عليك - عند الزلة - من يطلب لزلتك عذراً ومخرجاً، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساءه ذلك، وأخفى مكانه، وعند حسنتك يُسَرُّ، فإن لم يسر لم تسؤه.

فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة.

فإذا كنت كذلك:

فلا تحب إزالة نعمة أنعمها الله على أحد في دين ولا دنيا.

ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى.

ولا تحب أن يهتك ستره عند زلته.

فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك، زال عن قلبك الحسد، عن الدين والدنيا جميعاً[1].

---

(١) آداب النفوس ص(٨٠).

استخر الله تعالى

قال أبو عبد الله:

استعن بالله في كل أمر.

واستخر الله في كل حال.

وما أرادك الله له فاترك الاعتراض فيه.

وكل عمل تحب أن تلقى الله به فألزمه نفسك.

وكل أمر تكرهه لغيرك، فاعتزله من أخلاقك.

وكل صاحب لا تزداد به خيراً في كل يوم، فانبذ عنك صحبته.

وخذ بحظك من العفو والتجاوز[1].

العقل والعلم

قال أبو عبد الله:

اعلم أن كل عقل لا يصحبه ثلاثة أشياء، فهو عقل مكَّار.

- إيثار الطاعة على المعصية.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٩٠).

- وإيثار العلم على الجهل.

- وإيثار الدين على الدنيا.

وكل علم لا يصحبه ثلاثة أشياء، فهو مزيد من الحجة:

- كف الأذى بقطع الرغبة.

- ووجود العمل بالخشية.

- وبذل الإنصاف بالتباذل والرحمة.

واعلم أنه ما تزين أحد بزينة كالعقل، ولا لبس ثوباً أجمل من العلم، لأنه ما عرف الله إلا بالعقل، ولا أطيع إلا بالعلم[١].

أولى الفضائل

قال أبو عبد الله:

أولى الفضائل بك، وأنفعها لك:

أن تكون نفسك عندك دون قدرها.

وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٩٧).

وأن تبذل للناس حقوقهم، ولا تأخذ منهم حقك[1].

وتتجاوز عما يكون منهم.

وتنصفهم من نفسك، ولا تطلب الإنصاف منهم[2].

إدراك السنّة

قال أبو عبد الله:

السنة ليس بكثرة الصلاة تدرك.

ولا بكثرة الصيام والصدقة.

ولا بالعقل والفهم، ولا بغرائب الحكمة.

ولا بالبلاغ والموعظة.

ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، والأئمة الراشدين من بعده[3].

---

(١) وهذا على طريق التسامح عن قدرة، لا عن ضعف واستجابة للابتزاز.

(٢) آداب النفوس ص(٦٠).

(٣) آداب النفوس ص(٦٥).

الصمت والفكر

قال أبو عبد الله:

اعلم أن أملك الأشياء بالعبد الصمت، وكثرة الذكر مع إدمان الفكر، فذلك سبب الزيادة في الآخرة.

وبتكرير العبد الذم لنفسه يعرف نفسه. وبتكرير ذكر النعم يعرف آلاء الله عز وجل.

وبفكرتك في شدة عقابه يعظم خوفك.

وبكثرة ذم العبد نفسه في التقصير عن الشكر، يستوجب المزيد من الله تعالى[١].

معرفة الشر

قال أبو عبد الله:

الطهارة متقدمة أمام العمل بالطاعات.

ومعرفة آفات العمل تكون قبل العمل.

ومعرفة الطريق قبل سلوكه.

وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها، وعدوه،

---

(١) شرح المعرفة ص(٧٦).

ومعرفة الشر، أشد إن كان كيِّساً، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطناً معنياً بنفسه.

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد، والشر كله لازم للعبد تركه، ومن ترك الشر وقع في الخير، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله[1].

آثار الفضول

قال أبو عبد الله:

وجدت أصول الفضول المتحركة من القلب تظهر على السمع، والبصر، واللسان، والغذاء، واللباس.

وفضول السمع يُخرِج إلى السهو والغفلة.

وفضول البصر يخرج إلى الغفلة والحيرة.

وفضول اللسان يخرج إلى التزيّد والبدعة.

وفضول الغذاء يخرج إلى الشره والرغبة.

وفضول اللباس يخرج إلى المباهاة والخيلاء[2].

---

(١) آداب النفوس ص(٦٣).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١١١).

ضبط البطن

قال أبو عبد الله:

أول مخالفة الهوى ضبط البطن، فإن العبد إذا ضبط بطنه ملك جوارحه، وعرف قلبه، وهانت عليه المحاسبة وسائر مخالفة النفس فيما تهوى بإذن الله عز وجل.

وإن ضيعت بطنك، صعب عليك الأمر، وشردت جوارحك، وطغى وضاع قلبك، ولم تعرف حالك، ولم تقدر على المحاسبة.

فإذا أردت الطريق إلى الله تعالى، فاستعن بالله عز وجل، وخذ المعلوم من الطعام، وصفِّه من جميع الآفات[1].

فرائض الجوارح

قال أبو عبد الله:

قد جعل الله على كل جارحة أمراً ونهياً، فريضة منه، وجعل بينهما سعة وإباحة، تركها فضيلة للعبد:

---

(١) شرح المعرفة ص(٥٣).

ففرض القلب ـ بعد الإيمان والتوبة ـ: إخلاص العمل لله، واعتقاد حسن الظن عند الشبهة، والثقة بالله، والخوف من عذابه، والرجاء لفضله.

وفرض اللسان: الصدق في الرضى والغضب، وكف الأذى في السر والعلانية، وترك التزيُّد بالخير والشر.

وفرض البصر: الغض عن محارم الله، وترك التطلع فيما حجب وستر.

وفرض السمع: تبع للكلام والنظر، فكل ما لا يحل لك الكلام فيه والنظر إليه، فلا يحل لك استماعه ولا التلذذ به.

والبحث عما كتم عنك تجسس.

وسماع اللهو والغناء وأذى المسلمين: حرام كالميتة والدم.

وليس من جارحة أشد ضرراً على العبد ـ بعد لسانه ـ من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعاً في الفتنة.

وفرض الشم: تبع للسمع والبصر، فكل ما حل استماعه ونظره، جاز لك شمه.

وفرض اليدين والرجلين: أن لا تبسطهما إلى محظور، ولا تقبضهما عن حق[1].

الامتحان هو الكاشف

قال أبو عبد الله:

اعلم أنه إنما يستخرج محاسن ما في القلوب، من صدق أو قبح، وما فيها من كذب في مواطن الامتحان.

وكل أمر لا يختبر بالامتحان، لا يعلم حقيقة ما فيه من خير أو شر، فعند ذلك تبدو لك فضائح ما تخفي ضمائر الأنفس من شر إن كان فيها، أو خير إن كان عندها[2].

الاستغناء بالله

قال أبو عبد الله:

لو استغنيت بالله وحده، وباطلاعه عليك، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته، ومحبته لهم، وتوفيقه لهم،

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١١٣).

(٢) شرح المعرفة ص(٥٣).

وتسديده إياهم ورقابته، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ـ ولا لنفسه ـ ضراً ولا نفعاً[١].

فساد القلب

قال أبو عبد الله:

وجدت فساد القلب فسادَ الدين. ألا ترى لقول رسول الله ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[٢].

ومعنى الجسد ـ هنا ـ الدين، لأن بالدين صلاح الجوارح وفسادها.

وأصل فساد القلب ترك المحاسبة للنفس، والاغترار بطول الأمل.

فإذا أردت صلاح قلبك فقف مع الإرادة، وعند الخواطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره.

واستعن على قصر الأمل بدوام ذكر الموت[٣].

---

(١) آداب النفوس ص(٦٠).
(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) رسالة المسترشدين ص(١١٠).

علامة المرائي

قال أبو عبد الله:

إنه يحب الحمد على طاعة الله عز وجل، ويكره الذم.

وإذا عمل عملاً لم يعلم به غير الله عز وجل، أو علم علماً لم يعلم به إلا الله، لم تقنع نفسه في عمله وعلمه بعلم الله عز وجل ونظره وسمعه وحدَه، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره[1]، يهتم لذلك.

فإن اطلعوا عليه، ارتاح قلبه لذلك، وسرَّ بحمدهم.

وأخف الناس عليه من حمده وأثنى عليه، وأثقلهم من ترك حمده والثناء عليه.

ولا تسخو نفسه بإتيان طاعة لله لا يعلم بها أحد، فإن أراد نفسه على ذلك، ثقل عليها، ولم تطاوعه عليه[2].

---

(١) أي حتى يعلم الناس بذلك.

(٢) الرعاية لحقوق الله ص(٢٢٨).

فريضة التوبة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن حفظ الجوارح فريضة، وتركَ الفضول فضيلة، والتوبة قبل ذلك فريضة، وقد فرضها الله ورسوله:

فقال جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1].

معنى نصوحاً: ترك العود فيما تاب منه العبد إلى ربه.

وقال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وتقربوا إلى الله بالعمل الصالح من قبل أن تشغلوا)[2].

ولا تصح التوبة إلا بأربعة أشياء:

حل[3] إصرار القلب عن المعاودة.

---

(١) سورة التحريم، الآية (٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٠٨١) بلفظ قريب.

(٣) حل: هنا في مقابل العقد، والمراد: التخلي عن فكرة المعاودة إلى الذنب.

والاستغفار بالندم.

ورد التبعات والمظالم.

وحفظ الجوارح من الحواس السبع: السمع والبصر واللسان والشم واليدان والرجلان، والقلب، وهو أميرها، وبه صلاح الجسد وفساده[1].

القصد والرفق بالنفس

قال أبو عبد الله:

لا تدعْ أن تفزع إلى الله عز وجل في جميع أحوالك، أن يعينك عليها[2] ويوفقك لها.

فإذا أردت الطريق إلى الأدب، والجد في العمل، والتخلص من شدائد ما أنت فيه، وأن يهون عليك شديد ما أنت فيه: فعليك بالقصد في مطعمك وملبسك، والقصد في صلاتك وصيامك، وفي جميع تصرفك، وفي جميع أحوالك.

وعليك بالرفق في نفسك، فإن نفسك مطيتك، فلا تنفرها، ولا تجهدها، ثم خذ منها لها.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١١٢).

(٢) عليها: أي على نفسك.

فإنك تسلك طريقاً صعب المدرجة[1]، مع قلة الأعوان، وكثرة الأعداء[2].

الحذر من معاصي القلوب

قال أبو عبد الله:

إذا تورع الناس عن ذنوب الجوارح الظاهرة، فغضوا الأبصار، وأنصتوا عن الغيبة، وكفوا عن الظلم، وتركوا الخوض في الآثام، وتخلصوا من تناول الحرام، فكونوا من أتركهم له.

وتفقدوا ـ مع ذلك ـ ذنوب القلوب، فإنهن المهلكات القاصمات.

فإن منها: الشك والشرك والنفاق والكفر.

ومنها: الاغترار بالله عز وجل، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته.

ومنها: احتقار الذنوب، والتسويف بالإنابة، وقلة الاكتراث بتراكم الأوزار، والإصرار على المعاصي، والتيه والرياء.

---

(١) المدرجة: المذهب والمسلك.

(٢) شرح المعرفة ص(٧٠).

ومنها: العجب والتفاخر، وحبّ الزينة، والمباهاة في الدنيا.

ومنها: النكث والخيانة والغدر.

ومنها: الحسد والغل والحقد، والشماتة والعداوة والبغضاء، وسوء الظن والتجسس، وإضمار السوء.

ومن معاصي القلوب: مساعدة الهوى، ومخالفة الحق.

ومنها: الحب والبغض بالهوى.

ومنها: الجفاء والقطيعة، والقسوة وقلة الرحمة.

ومنها: الطغيان بالمال، والفرح بإقبال الدنيا.

ومن معاصي القلوب: استقلال الرزق، واحتقار النعم.

ومنها: الغفلة عن الله عز وجل، والاحتقار بمصائب الدين.

ومنها: استعظام الدنيا، والحزن على ما فات منها.

فتدبروا ما أصف لكم من معاصي القلوب، فإن العاملين بها قليل.

فجاهدوا على نفي ما خالف رضوان الله تعالى من سرائركم. فما عصمتم منه، فاحمدوا الله عليه، وما بليتم به، فبادروا بالإنابة والانتقال منه.

وتضرعوا إلى الله عز وجل في العصمة والعفو[1].

التقرب بطاعات القلوب

قال أبو عبد الله:

إذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأنواع البر الظاهرة: من الحج، والجهاد، والصوم، والصلاة، والصدقة، وتلاوة القرآن، وغير ذلك، فنافسوهم فيها.

واجعلوا أعظم الرغبة في طاعة القلوب، التي لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة، ولا يعلمها غير علام الغيوب.

فإن فيها المعرفة بعظمة الله تعالى وكبريائه، وجلاله وقدرته، وعظيم قدره سبحانه.

تقربوا إلى الله بمحاب الله، وبغض مكارهه، والرضى والغضب له وفيه.

---

(١) الوصايا ص(١٥٠).

وتقربوا إليه تعالى، بشدة الحب له، والحب فيه، والبغض من أجله.

وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأياديه الحسنة، ونعمه الظاهرة والباطنة.

وتقربوا إلى الله تعالى: بالخوف من زوال النعم، وشدة الحياء من التقصير في الشكر.

وتقربوا إليه بشدة الخوف منه، وحقيقة الرجاء فيه، والسرور بذكره ومناجاته، والشوق إليه، والرغبة في جواره.

وتقربوا إليه: بصدق اليقين، والتوكل عليه، والثقة به، والطمأنينة إليه، والأنس به، والانقطاع إليه..

وأين أولئك؟

ألا فتقربوا إلى الله تعالى: بالوفاء، ولين الجناح، والتواضع والخشوع والخضوع.

وتقربوا إليه: بالحلم والاحتمال، وكظم الغيظ.

وتقربوا إليه: بسلامة الصدور، وإرادة الخير للأمة، وكراهة الشر لهم.

وتقربوا إلى الله: بالرأفة والرحمة، والشفقة والحوطة على المسلمين.

ألا وتقربوا إليه: بالجود والكرم، والتفضل والإحسان، وصدق الوفاء.

وتقربوا إليه: بالقناعة والكفاف، والرضى بالبلغة، واليأس من نائل الناس.

وتقربوا بالتدبر لكتابه، والإضمار على القيام بحدوده، وإخلاص الأعمال له.

ألا وارغبوا في مكارم الأخلاق..

فارغبوا فيما نعت لكم من أعمال القلوب وطاعاتها، فإن العارفين بها قليل، والعاملين بها عزيز.. والناس عنها غافلون.

فما آتاكم الله منها شكرتم، وما قصرتم عنه حزنتم، وتضرعتم إلى الله في الفضل والتسديد لرضوانه[1].

معرفة الدنيا والآخرة

قال أبو عبد الله:

---

(١) الوصايا ص(١٥٣).

من علامة معرفة الدنيا: الترك لها، والزهد فيها، والوحشة منها، وممن ركن إليها وأحبها وآثرها، وعظم قدرها.

ومن علامة معرفة الآخرة: هيجان الرغبة فيها، وشدة الشوق إليها، والأنس بكثرة ذكرها، ومؤانسة من صدق في العمل لها[١].

طريق النجاة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن أنجى طريق للعبد: العمل بالعلم، والتحرز بالخوف، والغنى بالله عز وجل.

فاشتغل بإصلاح حالك، وافتقر إلى ربك وتنزه عن الشبهات.

وأقلل حوائجك إلى الناس، وأحب لهم ما تحب لنفسك، واكره لهم مثل ذلك.

ولا تحدثنَّ نفسك بخطيئة، ولا تصرن على صغيرة، وافزع إلى الله عند كل فاقة، وافتقر إليه في كل حال، وتوكل عليه في كل أمر.

---

(١) آداب النفوس ص(١٥٢).

واعتزل الهوى، ولا تقنع من نفسك بالتربص.

وأخمل ذكرك، وأدم لله شكرك، وأكثر من الاستغفار[1].

رزق غيرك

قال أبو عبد الله:

إنك لو رأيت من باع نصيبه من الآخرة بنصيب غيره من الدنيا، لعجبت منه[2]!!

فبعْ أنت نصيب غيرك من الدنيا بنصيبك من الجنة[3]، فإن الذي يبقى منك إنما هو رزق غيرك[4].

المخاوف

قال أبو عبد الله:

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٣٠).

(٢) والمثال على ذلك: أعوان الظلمة.

(٣) مال الإنسان بعد وفاته يصبح ملكاً لغيره، فهو نصيب غيره تحت يده طالما ظل حياً، فليستفد منه ويجعله من نصيبه في الجنة بصرفه في وجوه الخير، فإذا مات قبل ذلك فالمال يصبح رزقاً لغيره من ورثته.

(٤) آداب النفوس ص(١٨١).

إن العبد بين تسع مخاوف:

أولاها: أن يخاف ويدعو الله، ويتضرع إليه ألا يَكِلَه إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدوانا.

والثانية: أن يخاف من كفران النعم، التي قد غلب عليه البطر[1] بها، فأشغله عن الشكر عليها.

والثالثة: خوف الاستدراج بالنعم وتواترها[2].

والرابعة: خوف الله؛ أن يبدو له غداً من الله ما لم يكن يحتسب، في طاعاته التي يرجو ثوابها، ولم يعدًّها من ذنوبه.

والخامسة: الذنوب التي عملها، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى.

والسادسة: تبعات الناس قِبَلَه[3]

والسابعة: أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره.

---

(١) البطر: غمط الحق ودفعه تجبراً.

(٢) الاستدراج: أن يعطى العبد خير الدنيا، وهو مقيم على الشر.

(٣) أي الحقوق التي عليه للناس.

والثامنة: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا، والنكال فيها قبل الفوت.

والتاسعة: الخوف من علم الله تعالى فيه، وفي أي الدارين أثبتَ اسمه في أم الكتاب.

فاحذر الذنوب، فإن شؤمها قريب، وظلمتها شديدة.

واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين[1].

التأني

قال أبو عبد الله:

عليك بالتأني في جميع أمورك كلها، إلا فرائض الله عز وجل ومحارمه، فإن قدرت فلا تؤخر شيئاً لغد، وأدِّ كل شيء في وقته.

وأما المحارم فإن قدرت أن تتركها في ساعة فافعل، والعون من الله عز وجل[2].

---

(١) آداب النفوس ص(٩٢).

(٢) شرح المعرفة ص(٧٢).

أخطار المدح

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا رضي الناس بالمدحة، فارتاحت لها أنفسهم، ألا فراقبوا الله أن ترضوا بذلك.

وكونوا وجلين من ضرر المدحة، فإن لها حلاوة تسبق إلى القلوب، ومواقع في النفوس موجودة، ولهذا لا يسلم منها إلا القليل.

وذلك لأن منكم من يعمل بأعمال البر، لا يريد بها سواه، فإذا بدت فضائله، أُثنيَ عليه وأُكرم، أذاقه الشيطان حلاوة يا لها من حلاوة، توافق هوى النفس، فترتاح لها نفسك أيها العابد.. وترضى بها، وهذا من خبايا النفوس، وأنت في غفلة.

يا قوم، فمتى بليتم بالمدحة، فجاهدوا أنفسكم على نفي ذلك عن القلوب بالكراهة والوجل منها، وقد أشفق عليكم رسول الله ﷺ منها، ونهاكم عن التمادح، لعلمه بأنها مضرة.

ويح المادح والممدوح، كيف جهلوا رشدهم، فكرهوا مذمة لا تضر، بل يؤجرون عليها، ورضوا بالتمادح بينهم خلاف وصايا رسول الله ﷺ؟ لقد جهل القوم جهلاً بيناً.

وبعد: فتدبروا أحوال الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانوا أعلم بالله تعالى، وأخشى له منكم، وأخلص أعمالاً، وكانوا مع ذلك وجلين من المدحة، يكرهونها ويبغضونها من المادح، إشفاقاً من الفتنة فيها. وأنت تزعم أن رضاك بها لا يضرك، كأنك أرجح صدقاً وإخلاصاً من السلف، كأنك أقوى على نفي الفتنة منهم!!

أخي، تدبر ما أقول لك:

من المستوجب عندك للثناء والمدحة، إلا من زينك بالأفاعيل الجميلة؟ وحباك بالخصال الممدوحة؟ ومن نفضل عليك بالأيادي الجسيمة، والمنن العظيمة، والنعم المتواترة والآلاء المتظاهرة؟

فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والثناء والشكر، أم أنت مستوجبها في خاصة نفسك؟

ويحك! تدبر ما دهاك به الشيطان، أراد أن ترضى بتزكية العبيد، كيلا تكون عند الله زاكياً ولا حميداً[1].

---

(١) الوصايا ص(١٢٣).

فتنة أعمال البر

قال أبو عبد الله:

إنها أعمال من البر، كانوا يرون أنها منجيتُهم، فكانت هي مهلكتُهم، لما مازجها من الرياء، وحب المحمدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القَدْر، والميل إلى ثواب المخلوقين.

فلما وردوا على الله عز وجل، وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا، فافتضحوا ـ وفضيحه ما هناك باقية ـ ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب[1]، وصاحب الرماد[2].

قال العدو الخبيث: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾[3].

---

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾** سورة النور، الآية (٣٩).

(٢) وهذا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾** سورة إبراهيم، الآية (١٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧).

فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا، قد كان ينبغي للناس أن يحذروه.

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر، وقلة العناية بتصفية الأعمال، وما قد استَحْلَتِ النفس من حب المحمدة من المخلوقين.

وقد يؤتى قوم من قبل الآثام.

وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فتن بالآثام، ولا يعرفون من فتن بالبر، إلا القليل من الناس من أهل النور والفطن..

وذلك أن الذي يعمل بأعمال البر - وهو يحب فتنتها - أكثر من الذي يخاف فتنتها، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها.

ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها، ثم يغلبه الهوى.

ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل.

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال، ومعه العناية بنفسه وعمله، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة.. ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى.

فكيف الذي يجهل ويغفل ويغلبه الهوى، ويحب دخول الآفة؟![1].

سبيل الطهارة

قال أبو عبد الله:

اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أنك لا تصل إلى الطهارة، ولا تنتفع بشيء من الأدب، ولا يصفو قلبك، إلا بالتحول والانتقال من جميع ما يكره الله تعالى إلى جميع ما يحب، وتخرج من قلبك كل الذي تحبه من الدنيا، وتخرج من قلبك غموم الدنيا.

فإنك لا تصل إلى حلاوة العبادات، وأنت تعبأ بشيء من الدنيا، أو تحزن على شيء منها.

وكلما أخرجت من قلبك شيئاً من ذلك، أدخلت مكانه علماً من أعلام الآخرة، وكلما طهرت من منزلة ورثت مكانها علماً من علوم الآخرة، تخرج طائفة من الدنيا، وتسكن مكانها طائفة من المعرفة والهدى والبصيرة.

فلا تزال كذلك في البحث عن مساوئ نفسك،

---

(١) آداب النفوس ص(٧٥).

كلما ظهر لك خلق سيء نفاه خلق حسن، حتى تورث بذلك الطهارة والالتجاء إلى الله عز وجل[1].

في ميدان الأخلاق والسلوك

قال أبو عبد الله:

عليك بالتأني عند موارد العجلة، وحسن الأدب في المخالطة.

ولا تغضب لنفسك على الناس، واغضب لله على نفسك.

ولا تكافئن أحداً بإساءة.

واحذر المدحة للجاهل بنفسه، ولا تقبلها لنفسك من أحد.

وأقلل الضحك، وجانب المزاح.

واكتم الأوجاع، وأظهر التعفف.

واستبطن الثقة، واستشعر اليأس وحسن الفقر.

واصبر على ما أصابك، وارضَ بما قسم الله لك.

---

(١) شرح المعرفة ص(٧٥).

وكن من وعد الله على يقين، ومن آثارك في وجل.

ولا تتكلفنَّ ما قد كفيته، ولا تضيعنَّ ما وكلت بطلبه.

وافتقر إلى الله في كل عطائه، وارغب في النجاة منه.

واعف عمن ظلمك، وأعط من حرمك، وصل من قطعك.

وآثر في الله من أحبك، وابذل نفسك ومالك لإخوانك[1].

لكل عمل أداة

قال أبو عبد الله:

إن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئاً بدأوا بالطلب، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل، وإلا فلا سبيل لهم إلى ذلك البتة.

فلو اجتمع أهل الدنيا كلهم، ومعهم أداة كل

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٣١).

صناعة، لم يقدروا أن يثقبوا إبرة إلا بأداتها التي هي أداتها.

وهكذا جميع الأشياء.

هل رأيت بيطاراً قط قدر على صناعته بأداة خياط؟

وهل قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار؟

وهكذا كل عمل.

وهكذا أعمال الآخرة، لا يقدر عليها إلا بأداتها.

وأصل أداة أعمال الآخرة: العلم، والمعرفة، والاعتبار، فإنها من دلالات الأداة[1].

إياك والتكلف

قال أبو عبد الله:

لا تكثر الأيمان وإن كنت صادقاً.

واحذر التوسع في المنطق وإن كنت بليغاً.

وإياك والتكلف في الدين، وإن كنت عالماً.

---

(١) آداب النفوس ص(١٣٥).

وقدم العلم قبل كل مقال[1].

إحسان الظن بالنفس

قال أبو عبد الله:

أحسنت الظن بنفسك، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم، من غير إنكار منك عليها لمساوئ أعمالها.

وأسأت الظن بغيرك، فأنزلتهم في درجة المسيئين، إغفالاً منك لشأنك، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك.

أردت أن ينظروا إليك بالتعظيم والمهابة والرحمة، فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً، وازددت أنت من الله بعداً وسخطاً[2].

احذر أخلاق الجاهلين

قال أبو عبد الله:

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٣٦).

(٢) آداب النفوس ص(٨٨).

احذر أخلاق الجاهلين، ومجالسة المذنبين، ودعاوى المعجبين، ورجاء المغترين، ويأس القانطين.

وكن بالحق عاملاً، وبالله واثقاً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً.

فإن من صَدَقَ الله نصحه، ومن تزيَّن لغيره فضحه.

ومن توكل على الله كفاه، ومن وثق بغيره مقته، ومن خافه أمَّنَه، ومن شكره زاده، ومن أطاعه أكرمه، ومن آثره أحبه[1].

أنواع الخائفين

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الخائفين ثلاثة:

رجل خاف أن لا تقبل له توبة، فهذا عبد عمل على التوبة مع التحول والانتقال.

ورجل خاف أن تردَّ عليه حسناته، فهذا مستقبل البر.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٦٤).

ورجل ألزم قلبه خالص النية، وعظمة الله عز وجل، فأذهله ذلك عن إثبات البر لنفسه، فأدمن السكينة والوقار، والتذلل والتفكر، والتذكر لله عز وجل، فهذا عبد إنما يرى نفسه أبداً في جهنم.

فهؤلاء أشفقوا من الطاعات أن تكون أشد عليهم من المعاصي.

فإذا كان هذا خوفهم من الطاعات، فكيف خوفهم من المعاصي والعقاب؟

فانظر - رحمك الله - من أي الخائفين أنت؟[1].

أحسن العبادة

قال أبو عبد الله:

من أحسن العبادة، أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذ فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب.

فربما كانت الجوارح في العبادة، والقلب في البطالة[2].

---

(١) شرح المعرفة ص(٨٠).

(٢) آداب النفوس ص(١٧٨).

أشرف العبادة

قال أبو عبد الله:

من أشرف العبادة أن تراقب الله بما يحب الله، فإذا فترت عن ذلك، راقبته فيما يكره، ملتمساً العود إلى الحالة الأولى التي كنت عليها، حريصاً على ذلك.

فيحدث لك حينئذ حنين شديد إليها، فإنه إذا رآك كذلك تحنُّ وتحرص، ردَّ عليك ما سلبك[1].

خذ العلم من أهل الخشية

قال أبو عبد الله:

اعلم أن ما يصل إليه العبد من الفهم، بقدر تقديم عقله، وموجود علمه بتقواه لله وطاعته.

فمن وهب الله له عقلاً، وأحياه بالعلم بعد الإيمان، وبصره عيوب نفسه، فقد نظمت له خصال البر.

فاطلب البِّر في التقوى، وخذ العلم من أهل الخشية.

---

(١) آداب النفوس ص(١٧٩).

واطلب آثار من زاده العلم خشية، والعمل بصيرة، والعقل معرفة[1].

احفظ سرك

قال أبو عبد الله:

احفظ سرك ولسانك من الخلق أجمعين، فإنما هذه الأيام أيام الهرب، فإن ذهبت تطلب النفل، لا آمن عليك أن تضيع الفرض مع أهل زمانك. فاستعن بالله تعالى، وعليك بالهرب من الناس[2].

عجباً له

قال أبو عبد الله:

ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله، ولا يستحيي أن يطلع الله منه على ما يكره.

سوءة لمن كان هكذا، وعجباً له!! حيث يضيع الفرض، ويركب من الأشياء ما كره الله، ثم يتقرب إلى الله بما لم يفرضه عليه، ويتعاطى النوافل، من الحج والعمرة.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٩٣، ١٠١).

(٢) شرح المعرفة ص(٨٨).

ويأمر وينهى، ويدعو الناس ـ بزعمه ـ إلى الله، ويأبق منه، ويأمر ولا يعمل، وينهى ولا ينتهي.

سوءة لمن كان هكذا[1].

من الكرامة

قال أبو عبد الله:

لا تنشر حديثك عند من لا يريده.

ولا تبذل دِينَكَ عند من يبغِّضهُ إليك.

ولا تتعرَّض من البلاء ما لا طاقة لك به.

وأكرم نفسك عمن يهينها، ونزِّه همتك عن دناءة الأخلاق.

ولا تواخِ إلا أمينا.

ولا تبدِ أسرارك لكل الناس.

ولا تجاوز بالمرء حاله، ولا تخاطبه من العلم بما لا يحتمله عقله.

ولا تدخل في أمر لم تُدعَ إليه[2].

---

(١) آداب النفوس ص(١٨٦).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٤٠).

أنزل الناس منازلهم

قال أبو عبد الله:

وقِّر مجالس العلماء، واعرف قدر الحكماء، وأعرض عن الجهال، واحلم عن السفهاء، وشاور في أمرك الذين يخشون الله[١].

منازل الآخرة بالعمل

قال أبو عبد الله:

إن للناس منازل ودرجات، فمن نظر بعيني قلبه أبصر درجاتهم ومنازلهم في طريق الآخرة، كما أبصر بعيني رأسه منازل ودرجات أهل الدنيا.

ولا يستحق أحد منزلة من منازل الدنيا والآخرة بمعرفة قلبه، ولا بذكر لسانه، ولكن بعمل أهلها، والقيام بشروطها.

وكما لا ينفع الفقير معرفته بيسار الموسر، وما يملك من النعيم وألوان الأطعمة والفرش واللباس، كذلك لا تنفعك معرفتك بأعمال الصالحين، وأنت غير عامل بمثل عملهم، بل هو حجة عليك[٢].

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٤١).

(٢) آداب النفوس ص(١٨٢).

السعادة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن من سعادة المرء: حسن النية فيما عند الله تعالى، والتوفيق لمحابه.

ومن أراد الله به خيراً، وهب له العقل، وحبب إليه العلم، وحباه بالإشفاق، واستعمله بالرفق، وأغناه بالقناعة، وبصره عيبه[1].

الصغير من الخير

قال أبو عبد الله:

احذر ما يكره الله من عملك ونيتك، وسرك وعلانيتك، في الصغير كما تحذره في الكبير، وإن كل شيء يفسد عليك مثقال ذرة قدمته لله، يفسد عليك مائة ألف..

وارغب في الصغير من الخير، كما ترغب في الكبير رغبة واحدة، لأنه يقبل القليل من العبد، كما يقبل الكثير، قبولاً واحداً سواء. وهكذا في سائر الأعمال.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٦٦).

وكفى بقبول اللَّهِ العمل الصغيرَ من عبده لعبده فوزا. مع أن أعمال بني آدم كلها صغار إلا ما قبل الله منها، فإذا قبل منها شيئاً صار عظيماً، وإن كان قبل ذلك صغيراً.

واعلم أن صغارها أسلم من كبارها في الرياء والإعجاب والامتنان، فانتبه لذلك ولا تغفل عنه[١].

رزقك لا يفوتك

قال أبو عبد الله:

ثلاث خلال تلزمها قلبك:

الخلة الأولى: الإيمان بأن المقدور يأتي، وأن ما لم يقدر لا تناله.

فمن أيقن بذلك أورث الله تعالى قلبه خصلتين:

أ ـ إحداهما: أن يأمن قلبه أن يفوته ما قدر له.

ب ـ والثانية: أن ييأس أن ينال ما لم يقدر له.

فمن لزم قلبه الأمن أن رزقه لا يفوته، والإياس أن ينال ما لم يقدر له، استغنى، وقلَّ همه وغمه

---

(١) آداب النفوس ص(١٧٠).

وخضوعه للخلق، والمداراة لهم لأن ينال بهم منفعة، فهذا هو الغني بالله تعالى.

والخلة الثانية: الحذر من الله تعالى أن يغفل فيزل[1]، فيسقط من عينه، لأن الحذر يوقظه، والتيقظ يذكره، والذكر ينبهه، حتى يراقب مليكه.

والخلة الثالثة: ذكر اطلاع الله عز وجل على ضميره وجوارحه، فإن ذلك يورث له الحياء.

وجملة ذلك: أن تغدو إلى سوقك ـ أو غيرها ـ فتلزم قلبك ثلاثاً:

اليقين، والحذر، والنظر.

فباليقين تستريح.

وبالحذر تتيقظ.

وبذكر النظر تستحيي من الناظر الأعلى تبارك وتعالى[2].

---

(١) أن يغفل: أي الإنسان.

(٢) كتاب المكاسب، مؤسسة الكتب الثقافية، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص(٧٢).
وكتاب معاتبة النفس: دار الكتب العلمية، ص(٤٤) مطبوع مع كتاب البعث والنشور.

عتاب النفس

قال أبو عبد الله:

ويحك يا نفس.. لِقد عظمت عليك الحجة، ودامت منك الجرأة، إذ كنت للآثار طالبة، وللقرآن حافظة، وفي الدقائق من الحكمة مناظرة، وبحسن العظات ناطقة، تُدْعَينَ إلى الله وأنت منه فارة، وتذكرين بالله وأنت له ناسية، تعظمين الله بالقول، وأنت بالفعل غير معظمة[1].

نداء الله

قال أبو عبد الله:

إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعي الله؟

ومن استغنى بشيء دون الله، فقد جهل قدر الله[2].

ما يخاف منه

قال أبو عبد الله:

---

(١) معاتبة النفس، ص(٥٢).

(٢) تهذيب حليه الأولياء (٣/ ٢٧٣).

اعلم أني لست أخاف عليك وعلى مثلك من قلة العمل، ولكن أخاف عليك من قلة المعرفة، وضعف الإرادة.

لا أجدني أخاف عليك وعلى مثلك من قلة التطوع، ولست أخاف من الورع ألا تنظر فيه كما ينظر غيرك، أو لا تترك شهوات أحلها الله لك، وتؤثر بها عليك غيرك.

إلا أني أخاف عليك:

أن تنازع في أمر يكرهه الله، ولا ينفعك، قد خفي على الناس، وهو عند الله ظاهر، فيفسد عليك جميع ما أردت.

أو ترى أن لك فضلاً على غيرك، فيحبط ذلك جميع ما كنت فيه.

وأخاف عليك ألا تقوم بصيانة أعمالك، كما قمت بعملها، فيهدم ذلك جميع ما كنت فيه وما بنيت عليه، أو لا تؤدي ما يجب عليك من الشكر فيها..

أو تكون تدل على الله عز وجل بعملك، فيسقطك ذلك من عين الله.

أو تَمُنُّ به على أحد، أو تؤذي بسببه أحداً. فقد علمت ما قال الله عز وجل في ذلك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾[1][2].

الرجاء

قال أبو عبد الله:

الرجاء: هو أن ترجو قبول الأعمال، وجزيل الثواب عليها. وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليك.

والراجون ثلاثة:

رجل عمل حسنة وهو صادق في عملها، مخلص فيها، يريد الله بها، ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها، ومعه الإشفاق فيها.

ورجل عمل سيئة، ثم تاب منها إلى الله، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها، والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٤).

(٢) آداب النفوس ص(١٧١).

وأما الثالث، فهو الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحب لنفسه، ولا يحب أن يلقى الله به، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها، ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو.

فهذا يقال له: مفترٍ، متعلق بالرجاء الكاذب[1].

الحذر من قسوة القلب

قال أبو عبد الله:

ينبغي للمؤمن إذا رأى القسوة من الران[2] على قلبه ـ عقوبة له على ذنبه ـ أن يخاف أن يكون الله سبحانه لما حجب قلبه عنه بالران والقسوة، أن يحجبه غداً عن النظر إليه.

لأنه أخبر أنه عاقب من أخرجه عن ولايته: بحجب قلبه عنه في الدنيا، وحجب بصره أن ينظر في الآخرة إلى جلاله، فقال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[3].

---

(١) آداب النفوس ص(٦٨).

(٢) الران والرين: سواد القلب وظلام بصيرته بسبب الذنوب.

(٣) سورة المطففين: الآيتان (١٤، ١٥).

إحداهما تتلو الأخرى، حجبا معاً في التلاوة: حجاب القلب في الدنيا، وحجاب العين عن النظر إلى الله في الآخرة.

فإن اعترض للعبد خاطر من الشيطان ليقطعه عن الخوف من الله عز وجل، فليحذر أن تحل به هاتان العقوبتان[١].

الناس وصلاة الليل

قال أبو عبد الله:

الناس في صلاة الليل على ثلاثة: غانم وسالم وشاحب.

فالغانم: الذي نظر غفلة الناس، ثم وثب إلى عبادة ربه تعالى، فهو الغانم.

ورجل اغتنم غفلة الناس، فجنى على نفسه بالمعاصي، فذلك هو الشاحب.

ورجل سليم القلب نائم، قام فلا له ولا عليه، فهو السالم[٢].

---

(١) معاتبة النفس ص (٤٦) مطبوع مع كتاب البعث والنشور، دار الكتب العلمية.

(٢) شرح المعرفة ص(٨٤).

سرور أهل الدنيا

قال أبو عبد الله:

إني رأيت المؤثر للدنيا، سروره ممزوج بالتنغيص، تنفجر منه أنواع الهموم، وفنون المعاصي، وإلى التلف والبوار مصيره، فعاد فرحه ترحاً.

لم تبق له الدنيا، ولم يسلم له دينه، بل خسر الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين[1].

الاعتبار

قال أبو عبد الله:

استعن في أمرك كله بالاعتبار، فإن الأمر لا يزال مستوراً منك، أو غائباً عنك.

فإذا نظرت إليه نظر المعتبر، كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبر المعاين لما غاب عنك، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك، حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها، وحسنها وقبيحها، وتعرف من أين صار الحسن حسناً، والقبيح قبيحاً. فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك، وتجتنب ما فيه هلكتك[2].

---

(١) الوصايا ص (٤٠).

(٢) آداب النفوس ص(١٦٩).

قياس إبليس

قال أبو عبد الله:

العجب كل العجب، لكل مفتون تمرغ في تخاليط الشبهات والسحت، وتكالب على أوساخ الناس، وتغمض في المكاسب، من حيث ظفر بها تناولها.

نعم، وتتقلب في الشبهات والزينة والمباهاة، وتتقلب في فتن الدنيا، ثم تحتج بعبد الرحمٰن بن عوف، وتزعم أنك إن جمعت المال، فقد جمعته الصحابة، كأنك أشبهت السلف وفعلهم.

ويحك! إن هذا من قياس إبليس، ومن فتياه لأوليائه.

وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف، فتعرف فضائحك، وفضل الصحابة بأموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله.

فكسبوا حلالاً، وأكلوا طيباً، وأنفقوا قصداً، وقدموا فضلاً، ولم يمنعوا منها حقاً، ولم يبخلوا بها، لكنهم جادوا ـ والله ـ بأكثرها، وجاد بعضهم بجميعها، وفي الشدة آثروا على أنفسهم كثيراً.

فبالله أكذلك أنت؟

والله إنك لبعيد الشبه بالقوم[1].

استمرار العبادة إلى الموت

قال أبو عبد الله:

إنك لا تصل إلى الطهارة وفيك آفة من الآفات، ظاهرة أو باطنة، أو يكون فيك عيب واحد، أو خلق رديء، أو يكون فيك خصلة سيئة.

وليس خصلة ـ مما وصفت لك ـ إذا حصلت فيها، تظن يوماً من الدهر أن توضع عنك العبادة، لا يكون هذا أبداً، غاية العبادة إلى الموت[2].

لو وهب نفسه

قال أبو عبد الله:

إنما هي أيام قلائل، فما على الإنسان لو وهب نفسه لله[3].

---

(١) الوصايا، ص(٤٣).

(٢) شرح المعرفة، ص(٧٤).

(٣) آداب النفس، ص(٥٦).

الدعاء المستجاب

قال أبو عبد الله:

من فتح الله عليه باب الاستغاثة، ومنَّ عليه بالتضرع إليه، فعظم منته بذلك، وعلم أنه أعطي ما لم يستأهله، ثم داوم وواظب على الطلب، فلن يخيب الله دعوته، ولن يمسك إجابته.

أبى الجواد ـ بكرمه وجوده ـ أن يرد من أراده، فاشتكى إليه[1].

فرض التوكل

قال أبو عبد الله:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

أوجب ـ جلَّ وعزَّ ـ التوكل وفرضه على الخلق، لئلا يتشاغلوا عن العبادة بما يحتاجون إليه من ذلك، فكفاهم بذلك المؤنة، وأثبت به عليهم الحجة، وفرض

---

(١) معاتبه النفس، ص(٥٥).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (١٢).

عليهم فرائض أحكمها، وبين لهم ما استعبدهم[1] فيها من عددها وأوقاتها، وأحكامها من الصلاة والصوم، والزكاة والحج والجهاد، وحدود ما أحل وحرم[2].

فضل السعي

قال أبو عبد الله:

إذا أردت أن تأتي سوقك، أو شيئاً لمعاشك، أو صنعة، أو وكالة، أو غير ذلك، لطلب الحلال، والاتباع لسنة رسول الله ﷺ، وللثواب في نفسك وعيالك، والاكتساب عليهم، والاستغناء عن الناس، والتعطف على الأخ والجار، وأداء الزكاة، وكل حق واجب، فأمّل في ذلك أن تلقى الله عز وجل ووجهك كالقمر ليلة البدر[3].

الجرأة على التحليل والتحريم

قال أبو عبد الله:

أكل الحرام معصية.

---

(١) استعبدهم فيها: أي ما فرض عليهم فيها من العبادات.

(٢) المكاسب ص(٤٣).

(٣) المكاسب ص(٩٣).

واعتقاد القول بأن هذا حلال وهذا حرام، وليس ببيان أو شاهد من الإجماع، فهو افتراء على الله عز وجل، وكذب في الدين.

لأن الله تعالى لام الواصفين لذلك، فقال جلَّ ذكره:

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[1].

فحرك قلوبَ السامعين للتلاوة، والخوف من الله عز وجل: أن يتقدموا على أن يقولوا حراماً وحلالاً إلا بعلم.

وقد سئل عتبة بن فرقد عن شيء، فكان لا يقول حلال ولا حرام، لكن يقول: يستحبون ويكرهون.

وقد روى إبراهيم بن أدهم: كانوا يكرهون أشياء، ولا يقولون حراماً[2].

تصفية الخبز

قال أبو عبد الله:

---

(١) سورة يونس: الآية (٥٩).

(٢) المكاسب ص(٩٣).

جميع أعمال البر: من الصلاة والصوم، والغزو والحج، مع كثير من الطاعات، لا تقوم مقام تصفية الخبز.

لأن زكاة الأعمال كلها بطيب المطعم. ومن طيب المطعم تجنى ثمرة دواعي الصدق. والقليل من العمل مع الاجتهاد في السلامة من التخليط، خير من كثير من العمل مع التخاليط.

وإنما محمود العواقب في السلامة[1].

تصحيح الباطن والظاهر

قال أبو عبد الله:

من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2][3].

ليس الجوع منزلة

قال أبو عبد الله:

---

(١) المكاسب ص(١٠٠).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦٩).

(٣) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ٢٧٢).

كان أهل الصفة على الحق من ذلك.

وهكذا كان جوع أصحاب محمد ﷺ، إذا أعطوا أكلوا وشكروا، وإذا منعوا حمدوا وصبروا. فلم يجعلوا الجوع لهم سببا ولا طريقاً، ولا الشبع لهم منزلة.

وأفضل الجوع جوع المنع[1].

وجوع التكلف يفتضح بالشبع.

وإذا كان في الصوم جوع، فإنما معناه الترهب لله عز وجل، والسياحة لذلك، وكذلك يروى عن الله عز وجل. قال: (الصوم لي، وأنا أجزي به، يدع ابن آدم طعامه وشرابه من أجلي)[2].

وهذا هو الترغيب.

فمن دعا الناس إلى الجوع فقد عصى الله، وهو يعلم أن الجوع قاتل، وقد فعل ذلك بخلق كثير، من زوال العقل، حتى تركوا الفرائض. ومنهم من يتغير طبعه، ويسوء خلقه.

---

(١) جوع المنع: هو الذي يكون عن حاجة وضرورة لعدم وجود الطعام، مثل جوع أهل الصفة، لا عن تكلف.
(٢) الحديث متفق عليه.

ومن دعا إلى الشبع، فقد عصى الله، ولم يحسن أن يطيعه، لأن الشبع ثقل على البدن، وصلابة عن وعيد الله في القلب، وغلظ في الفهم، وفتور في الأعضاء[1].

الذكر

قال أبو عبد الله:

الناس في الذكر رجلان.

رجل ذكر الله بلسانه، وهو غافل بقلبه، فهذا لا يجد حلاوة ولا لذاذة.

ورجل ذكر الله عز وجل بلسانه مع قلبه، فهذا ضلت مكائد إبليس عنده[2].

الناس في أداء الصلاة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الناس في الفريضة ثلاثة:

رجل دخل الفريضة فأحضر هموم الدنيا قلبه،

---

(١) المكاسب ص(١٠٣).

(٢) شرح المعرفة ص(٨١).

فتصرف قلبه في هموم الدنيا يميناً وشمالاً.

فهذا المجنب عن الله تعالى، المباعد من كرامته.

ورجل دخل الفريضة، وهو خائف وجل ألا تسلم له، وربما أفلت منه الشيء فرجع.

فهذا الذي له ما عقل منها[1].

ورجل قد قدم المحاسبة مع الخوف والشفقة قبل دخول الفريضة، فعلق قلبه بمخافة الله عز وجل، عالم بأنه قائم بين يدي الله عز وجل.

فهذا الذي روي أنه وجبت له ثلاث خصال:

يتناثر البرّ من عنان السماء على مفرق رأسه.

والملائكة تحفه من قرنه إلى قدمه.

ومناد ينادي: لو يعلم المناجي من يناجي لما انفتل[2].

---

(١) هذا إشارة إلى حديث (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) قال الحافظ العراقي مخرج أحاديث الإحياء: لم أجده مرفوعاً.

(٢) شرح المعرفة ص(٨٢).

اتباع الهوى

قال أبو عبد الله:

إن اتباع الهوى: يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى[1].

العلم بالله تعالى

قال أبو عبد الله:

اعلم - يا أخي - أن أصل كل قول: العمل.

وأصل كل عمل: العلم.

وأصل كل ذلك التوفيق مع صحة تركيب العقل، وكثرة الفكر.

فإن قدرت ألا تكون بشيء أعلم منك بالله فافعل، فإن القول والعلم والعمل وغير ذلك، المراد به هو تبارك وتعالى. وإن أفضل الناس أقربهم من الله، وأقربهم منه أعلمهم به.

قال ابن مسعود: «ذهب عمر بتسعة أعشار العلم» وإنما يعني بذلك العلم بالله[2].

---

(١) الوصايا ص(٢٩).

(٢) آداب النفوس ص(١٨٨).

حب الدنيا

قال أبو عبد الله:

أنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه: قطع حب الدنيا من قلبه.

فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا[1]. وسهل عليه طلب الآخرة.

ولا يقدر عليه إلا بأداته.

أما إني لا أقول أداته الفقر، وقلة الشيء، وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد، ولكن أصل أداته: الفكر، وقصر الأمل، ومراجعة التوبة والطهارة، وإخراج العز من القلب، ولزوم التواضع، وعمارة القلب بالتقوى، وإدامة الحزن، وكثرة الهم بما هو وارد عليه.

وما أكثر من يعمل هذه الأعمال التي وصفنا[2]،

---

(١) المراد ترك الحرص عليها، واعتبارها وسيلة لا غاية، بدليل ما يأتي من الكلام بعد ذلك.

(٢) المراد بالأعمال: كثرة الصيام والصلاة...

وحب الدنيا في قلبه زائد، وكثير من الناس من لا يكثر من هذه الأعمال، وحبه للدنيا في نقص، لأنه أخذه من وجهه.

ووجهه: أن يلزم نفسه الفكر، ويقصر عليه من الأمل، وليكن أخذه للأشياء من حيث أباحها الله، فيضعها حيث أمره الله، ويلزم قلبه ذكر قرب مفارقتها، ومفارقة ما فيه.. ويقلّ الفكر في الدنيا وفي نعيمها.

فإن القلب مع الفكر يحيا إن كانت الفكرة في الآخرة، ويموت إن كانت الفكرة في الدنيا[١].

العمل الصعب

قال أبو عبد الله:

إن ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله.

وتكلف خروج الحوت من قعر البحر فأخرجه.

---

(١) آداب النفوس ص(١٣٦).

وتكلف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها.

وتكلف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض فأخذها وذللها وسخرها.

وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها.

وتكلف معالجة الشياطين فعالجها.

وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها، ومجاريها ومطالعها ومغاربها، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريهما، ومطالعهما ومغاربهما.

وتكلف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه، فعرف ذلك كله.

وتكلف مرض المريض، وأسباب علله بالنظر إلى بوله من غير أن ينظر إليه، فعرف داءه، وعرف دواءه.

فعرف كل ذلك.

وتكلف تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى، فكتبها ودرسها.

وكل ما تكلف من ذلك، فإنما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا. وليس في هذا من أمر دينه الذي كلفه شيء.

وكلِّفَ تقويم نفس واحدة، فلم يقم بتقويمها، وليس عليه من فساد غيرها شيء، لم يكلف إلا بإصلاح فساد نفسه وحدها، فلم يقم بإصلاح فسادها. فجهل بعض الصلاح وعلم بعضاً، فما جهل فهو جاهل به، لا يتكلف علمه، وما علمه من فسادها، فهو مضيع لإصلاحه.

فسبحان الله! ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف، فشغل عنايته فيه، وشغل فهمه فيه، وأما الذي جهل فضيع من معرفته ما قد كلف، وأخذ عليه فيه المواثيق.

فغلب المسكين الخَلْقَ، وغلبته نفسه.

ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها، وخيرها وشرها، كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمور دنياه، لعرف من فسادها وصلاحها مثل ما عرف من ذلك، وقدر منه على ما قدر من ذلك، ولكنه رضي أن يسلك

طريق الدين بالجهالة، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة[1].

(١) آداب النفوس ص(١٠٨).

المُحْتَوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من منشوراتنا

مواعظ الصحابة

رضي الله عنهم

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي